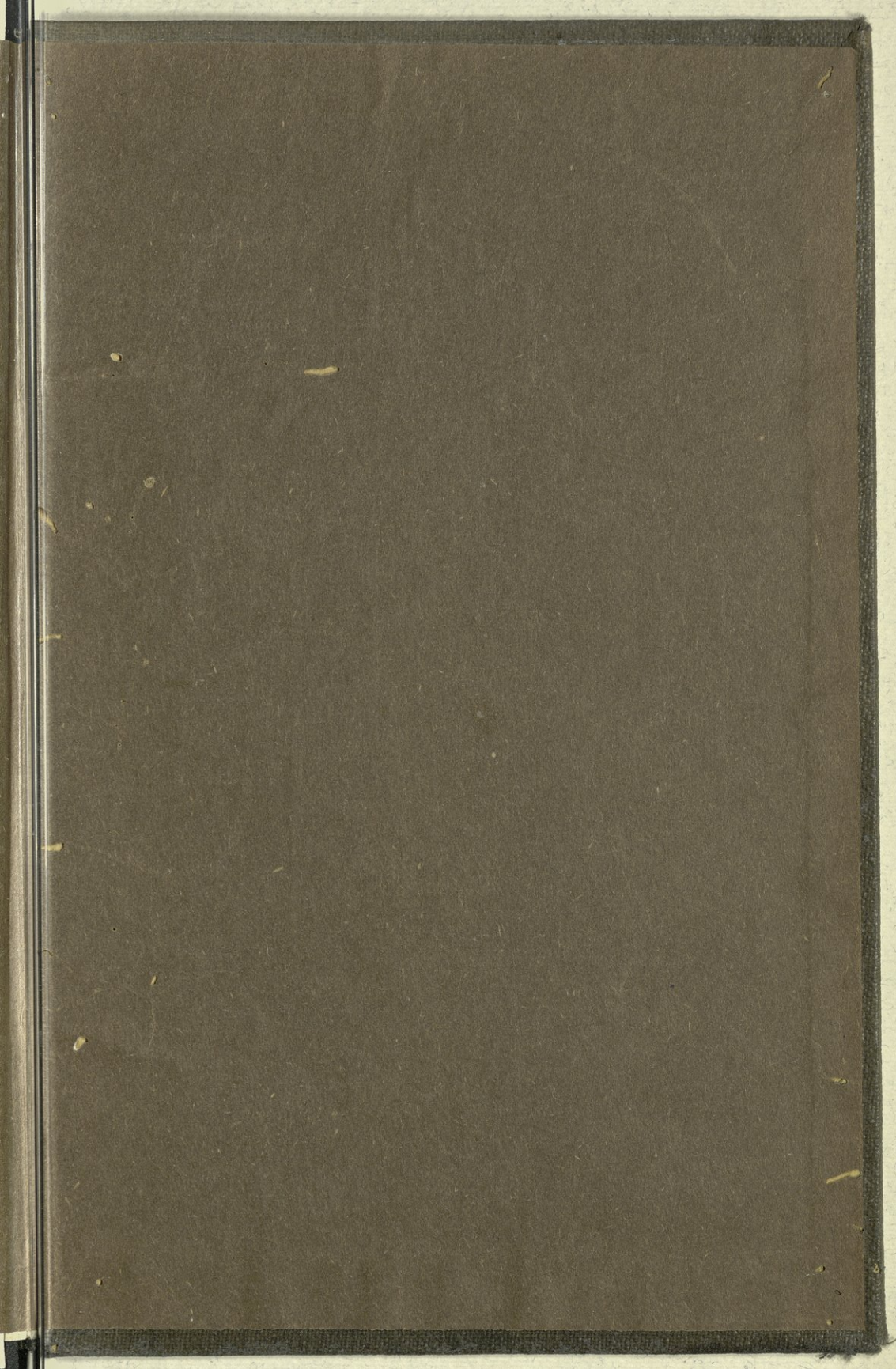


توضيح الفكر الأردني

A

مطبعة



1301157A

2.2

مرتبة جون شيودور

نزعة الفكر الأوروبي في القرن

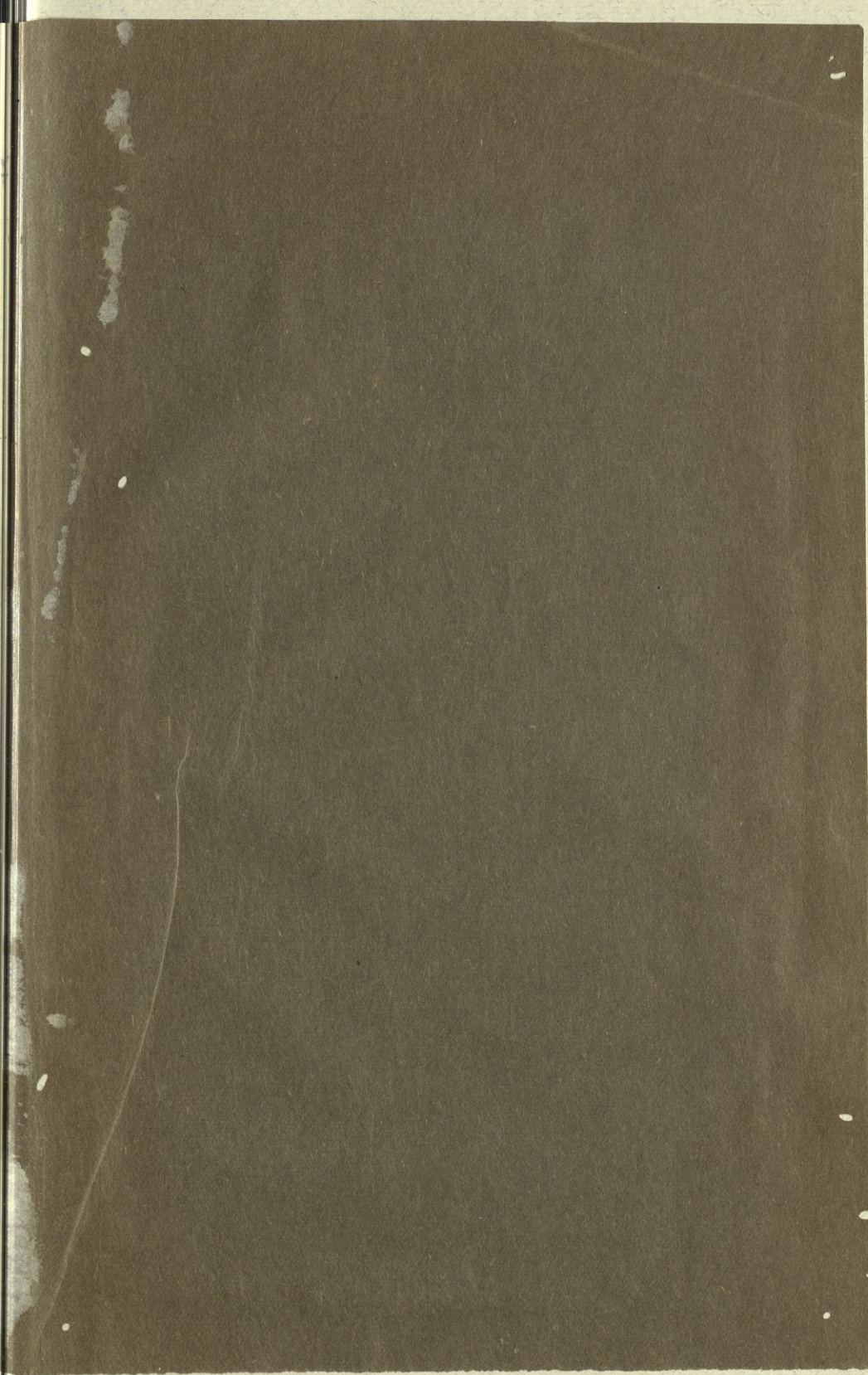
130

157A

2.2

-8 Dec 66





لقد تم شراء هذا الكتاب من مكتبة
مكتبة

190
M57hF
c.2

نزع الفكر الأوروبي

في القرن التاسع عشر

تلخيص عن مقالات العلامة

جون تور دورمر

في تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر

بفكر

إسماعيل مطهر

كل رسالة موضوع كامل

الرسالة الاولى - الطبعة الاولى

جميع الحقوق محفوظة

48685

١٩٢٣ - ١٣٤٢

مطبعة جريدة الصباح بالقاهرة - اصاحبها مصطفى السيد

Cont. May 1936

Gift Dr Rostum



مقدمة

الاستاذ « جون تيودور مرتز » اشهر من أن نعرف به ملما بالادب الانجليزى فى العصر الحاضر . على أنه ان كان تعريف القراء بمؤلف أوروبى أمراً واجباً ، فحسبنا أن نقول فى ذلك الاستاذ أن مؤلفه فى تاريخ الفكر الاوروبى فى القرن التاسع عشر ، ينزل من مؤلفات هذا العصر فى التاريخ العلمى منزلة كتاب « غيبون » فى سقوط الدولة الرومانية ، أو مؤلف « مومزن » فى تاريخ روما ، من حيث الاثر والقيمة ، على ما بين التاريخ العلمى والتاريخ العام من الفوارق التى لاتغيب عن المشتغلين بالعلوم الحديثة . أنقذت وقتاً غير قصير فى الاكباب على دراسة كتاب « مرتز » .

تاريخ الفكر الاوروبى : فى القرن التاسع عشر . فثبت فى يقينى أن نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية يكون بمثابة حلقة وصل بين عهدين : بين العهد القديم . والعهد الحديث فى تاريخ العلم والفلسفة . وأيقنت من جهة اخرى أن وقوف الناشئين من ابناء العربية على آخر ماجادت به عقول النبعاء فى أوروبا من ثمرات العلم والفلسفة حتى ختام القرن التاسع عشر : تمهيد ضرورى لمن يريد أن يتابع حركة النشوء الفكرى فى القرن العشرين . فروع العلوم الحديثة واسعة النطاق . وهى على تباين مراميها ووجهاتها ، متحدة الغاية . فان الغاية منها تثقيف العقل الانسانى . فهى مرقاة يتعلق بأسبابها الانسان لى يصل الى ابعد حد مستطاع من الرقى الاجتماعى . لهذا رأيت أن لا أقصر القراء على قراءة كتاب فى تاريخ الفكر الاوروبى ، علمياً وفلسفياً ، يقع فى أربعة مجلدات ضخام ، فى حين أن كلا منهم قد يعنى

بمقال واحد فيه . فان المؤلف قد قسم الكتاب الى شطرين عظيمين :
خص الشطر الاول بالعلم . والثاني بالفلسفة . ولم يترك في كلا الشطرين
من علم أو مبحث فلسفي لم يكتب فيه مقالاً رائعاً ، يصح أن يكون في ذاته
رسالة مستقلة عن الكتاب في مجموعة . لهذا فضلت أن أنشر الكتاب
في رسائل ملخصة تلخيصاً هو اقرب الاشياء شبهاً بالترجمة الحرفية ، بما تقتضيه
من أمانة في تحرى الالفاظ التي تعبر عن حقيقة الفكرة الخفية في موضوعات
العلم والفلسفة .

ولست بمقيد نفسي بترتيب ابواب الكتاب . فقد انشر رسالة من
رسائله الفلسفية لاعتقب عليها رسالة في العلم او اخرى في الادب . وسوف
أبذل جهدي لاجعل ظهور الرسائل متتالياً في فترات تكفي لامتناع
الفكرة المنبثقة في تضاعيف كل منها .

ان تلك الملخصات سوف تكون تاريخياً ومرجعاً لمبحث الفكرتين
العلمية والفلسفية في القرن الماضي . سوف ترضى مقترح الكثيرين من
الاصدقاء الذين طلبوا الى ان أخرج في العربية رسائل مختصرة توقف
الناشئين على ما وصل اليه العلم وما بلغت اليه الفلسفة في المصور الحديثة .
على أني بعد التفكير الطويل قد اقتنعت بأننا في عصر أحوج ما نكون
فيه الى الترجمة والنقل . فاذا اضعنا الى ذلك أن صوغ المبادئ العلمية
والفكرات الفلسفية في قالب تاريخي أدبي ، أروح علي نفوس الناشئين
والطلاب والباحثين من الاكباب على المصطلحات الفنية الصرفة ، عرفنا الى
أى حد تذهب الفائدة في نشر هذا الكتاب في رسائل مستقلة تخرج من
ثلاث جهات نوراً ساطعاً . من جهة العلم . ومن جهة الأدب . ومن جهة
الفلسفة



كذلك قد حررت نفسي من التقييد بنشر كتاب « مرتز » وحده . فان
 في عالم المؤلفات الحديثة كتباً قيمة في مختلف الموضوعات العلمية والفلسفية
 قد أخص الكثير من فصولها بالتلخيص وان كان اغلبهمنا سوف يصرف
 الى كتاب « مرتز » بادى ذى بدء . على انى سأخص كتاب العلامة
 « جون ديكسون وايت » - فى « تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت
 والعلم : فى عصور النصرانية - بقسط من العناية لا يضارعه الا عنايتى بكتاب
 « مرتز » . فان شباب هذا العصر وباحثية ان وقفوا على تاريخ تحرير العقل
 من اسر الاوهام التى سطت عليه فى القرون الوسطى ، وعرفوا تاريخ الجلال
 الذى وقع بين اللاهوت والعلم حتى اواخر القرن الثامن عشر ، ووجدوا بين
 ايديهم تاريخاً كاملاً فى كل ما انتج العقل والفكر فى القرن التاسع عشر . اتوا
 بذلك رحلة يستقر بهم نواها على منتجاب العقل فى القرن العشرين .
 على انى ان حررت نفسي من التقييد بموضوعات الكتابين وبما سوف
 أنتقى من فصول المؤلفات الحديثة التى آتس فيها اتماماً لغرضى هذا ، فأتى سأعمل
 على ان احتفظ باوجه العلاقة الواقعة بين ما انتقى من موضوع الرسائل
 ليحدث تسلسلها فى ذهن متابعيها كفاءة خاصة يدركون بها مقدار الفرق بين
 القديم والحديث .

اسماعيل مظهر

القاهرة اغسطس سنة ١٩٢٣

نزعة الفكر الاوربي

في القرن التاسع عشر

الفكر هو العالم الخفى - الفكر هو المبدأ الارتقائى - تاريخ الطبيعة وكيف يفهمها .
 تاريخ الطبيعة : مستحيل ادراكه بغير اقوة العاقلة - تاريخ القضايل المستوحشة وماهيته -
 طريقان لتأثير الفكر فى التاريخ - تعريف الفكر مستحيل - تحديد الصلات بين
 العالمين الداخلى والخارجى - للفكر معان كثيرة - الفكر فى العصر الحاضر - تاريخ
 المعاصرين : حد امكانه وقيمته - ادعاء المؤرخين امكان الاعتماد على طريقة النظر
 الموضوعى فى التاريخ - قيمة المدونات التاريخية المعاصرة - سر الحياة الفكرية -
 الفكر السكان مادة النبوغ - تدوين الفكر المعاصر اكتر امانة ونقما - حوادث
 الماضى القريب - تغير اللغات - اشتقاق الفاظ حديثة - الغرض من هذه المقالة -
 ليس الغرض وضع تاريخ سياسى ولا علمى ولا أدبى ولا فنى - العوامل التى تخلف
 تأثيرات ما فى حياتنا الداخلية - المعرفة لذاتية ضرورية - تأثير امريكا ولحمة فيه -
 قصر البحث على الروح العامية فى فرنسا والمانيا وانجلترا - وحدة الفكر نتاج
 القرن التاسع عشر - فولتير - آدم سميث - كولريديج ، واردسورث - مدام ده
 ستايل - بارس نواة العلم - باييج ، هرشل ، بيكوك - مامل ليبج - فلسفة كونت -
 تأثير كونستابل فى فرنسا - تعميم العلم ونشره بين الشعوب - أثر علم الصرف
 والاشتقاق فى عميد الطريق لمعرفة تاريخ العلم - جوته - خصائص اللغة الالمانية -
 الفكر الحديث يخلق كلمات حديثة - دي بونالد ، ماكس مولر - التعبير عن الفكر
 فى الالمانية والفرنسوية - فلسفة التاريخ - الحاجة الى مصطلحات تامة المعنى فى
 الالمانية والفرنسوية - كارليل .

* *

هنالك وراء المشاهد التى تتمثل أمامنا فى الحوادث الخارجية والتقلبات
 التى يكشف لنا التاريخ عنها جليلة أمام حواسنا ، يقع العالم الخفى ، عالم الرغبات
 والبواعث ، ومحركات الفكر ، متبوعاً بالانفعالات النفسية وقوى الحياة
 التى تنتج تلك الظواهر أو تصحبها .

هنالك وراء مظاهر الحياة ، نجد العالم الخفى ، عالم الفكر . وما كان

للتاريخ حسب ما يفهم اليوم من معناه في اللغات الحديثة ، أن يكون تاريخاً حقاً ، حتى يتناول الحقائق والحوادث متتابعة متلاحقة ، متواصلة غير مفصومة الحلقات ، فيظهرها لنا مترابطة الاسباب ، جماعها عائد الى قصد أو غرض ما ، فيرجع بنا الى الماضي سعيّاً الى علة جوهرية ، أو يسوقنا الى الامام ابتغاء غاية محدودة : كذلك الحال في محركات الفكر وبواعثه ، والرغبات وقوى الحياة ، التي تقع وراء الحوادث الظاهرة ، فانها تحتاج للاتصال وأن تظهر على حال من النظام والتتابع ، حتى نستطيع أن نبليغ منها بفهم ، أو نقتصاها بتاريخ ووضع . على أن ذلك العنصر الخفي ، عنصر الفكر ، هو الذي جمع بين شتاتها ، ووصل بين أطرافها ، وهو الذي يجب على المؤرخ اذ يتصدى للكشف عن هذه الحقائق ، أن يستوعب شارده ووارده . والفكر وحده ، مهما تعددت مظاهره ، وتنوعت مشاهدته ، سواء أكان مبدأ للعمل وبذل الجهد ، أو واسطة يتلوها التأمل والاستبصار ، في استطاعه أن ينظم المنفرقات المبددة ، ويربط بين فروعها ويجمع بين شتاتها ، وفي طوق استطاعته أن يحرك ما ليس بمتحرك ، وان يدفع بالحركة الى الامام ما هو ثابت ، لا متقدم له ولا متأخر . ولا جرم أنك ان استطعت أن تذهب من الدنيا بعالم الفكر ، فانك لا تلبث أن تجد أن اطراد النسق ووحدة الوتيرة ، والتجانس التام ، قد أصبح المبدأ في نظام الطبيعة .

وهذا القول قد يظهر للسواد الاعظم من الناس غريباً وفيه كثير من التطرف والجرأة . أما أولئك ، فهم الذين يتدبرون ظاهرة الطبيعة العظمى ، أكثر من تدبرهم تلك الحدود الضيقة التي ينحصر فيها عمل الانسان ونشاطه ودائرة تبصره . على أن بضعة ملاحظات لتكفي للدلالة على أن ما أوقن به لا ينافي وجهة النظر التي ينظرون . فقد يقول البعض اننا

نجد ، بعيدا عن عالم الفكر الانساني برمته ، أن للأرض تاريخاً وان للنظام الشمسي تدرجاً ونشوءاً ، وأن النشوء على نظريات العلم الحديث ، هو المبدأ الأوحـد الذي يخضع له العالمين ، الحى ، وغير الحى ، وأن السكون والتجانس لا وجود لهما فى الكون . وأنتك اينما وليت وجهك باحثاً فى نواحي الطبيعة لانقع الا على ضروب من التغير ، وأوجه من الحركة . ولكن ألا يعرفون أن التغير والحركة وحدهما لا يبعثان على وضع التاريخ وتكوينه ؟ فان التغير والحركة ليصبحان من الاطراد والثبات على نمط معين بحيث يكون حكمهما فى الطبيعة حكم السكون التام ، اذا تكرر وقوعهما متعاقباً على وتيرة واحدة وشكل غير متناه ، أو اذا لم تحدث الحركة شيئاً زائداً على ماهيتها ، بان يكون ذلك الشيء الزائد على ماهية الحركة ، أكبر خطراً ، أو أحسن صفة ، من نقطة الابتداء ؟ ولكن مصطلحات الكلام اذ نستعملها لتدل على ذلك الشيء الذى نخصه « بعظم الخطر » و « حسن الصفة » تلك التى تحتاج فى المقارنة والقياس الى كائن مفكر يجعل لشيء من الخطر والعظم ما ليس لغيره ، ويحكم على الاشياء بالقياس على أمثال عليها يتجدها قاعدة لاحكامه ، جماع هذه المعانى ليست بكائنة فى تضاعيف الموجودات أو ظاهرات الطبيعة ذاتها ، بل انك لاتجد لها من أثر الا فى ثنيات العقل المفكر وحده . وقد يصح أن يكون فى مقدور سلسلة من التغيرات الالية - الميكانيكية - غير العاقلة ، أن تستحدث اعداداً لانهاية لها ، او صوراً لانهاية لتنوعها . غير أن النهج الطبيعى لا يمكن أن يصبح تاريخاً . الا اذا بلغ حدا عنده يستطيع عقل مفكر أن يفقه منه طريقة الانتقال من حالة الوحدة الى حالة التضاعف والكثرة ، أو أن يستوعب منه طريقة ابراز تلك الصور التنوعية الشتى ،

أو أن يكشف عما اذا كان من شأن تلك الظاهرة الطبيعية أن تنتج شيئاً مادياً ذا قيمة ما ، أو أن لا تنتج اتصالاً بفائدة معينة ، أو أن يستشف منها ضرراً يسبب خسارة ، أو نفعاً يحدث كسباً . فالرقاص اذ يمضى فى الحركة يمنة ويسرة على نمط واحد غير ذى انتهاء ، والسيار ؛ اذ يتحرك حول الشمس مكرراً حركته الى لا آخر ولا قصد ، والجوهر الفرد اذ يهتز مترادفاً فى مكان معين : جماع هذه الأشياء لا تبعث فىنا شيئاً من حب العناية بها لا بعد من معرفة القانون الرياضى الذى يضبط حركاتها ، ويحملنا دائماً على أن نستوعبها عقلياً ، أى نفكر فيها . فالتحاد عدد غير متناه من هذه الحركات الاولى ، لا يبعث فىنا شيئاً من العناية به ، مالم نعتقد أن من اتحاد مثل هذا العدد قد ينتج شىء جديد غير مرئى . شىء ينبه فىنا الشعور بحس من الجمال أو الفائدة اذا عرفناه وملكناه . شىء ذو قيمة غالية فى نظر العقل المفكر ، مهما كان المعنى الذى يؤديه لنا اصطلاح « العقل المفكر » كبيراً أم صغيراً ، عظيماً أم حقيراً .

غير اننا اذ ننظر فى العالم غير الحى ، فنجد أن نهج الطبيعة فى التغير وعدم الثبات ، يبعث فىنا شيئاً من اللذة والعناية به ، ونلاحظ أن لذلك العالم تاريخاً ترجع معرفته كما يعود استكناؤه الى عقل مفكر يدونه ويتفهمه وينميه ويقدره ، فالى أى حد تتضاعف تلك اللذة وتذهب هذه العناية ، اذا ما نظرنا فى أعمال العالم الانسانى ، حيث يصبح الانسان أول مصدر للعمل ، فضلاً عن أنه القوة المفكرة وينبوعها ، مادام ذلك مبلغ لذننا وعنايتنا من النظر فى العالم غير الحى ؟ فاذا لم يكن فى مستطاع السنين وتعاقبها ، والعصور وتلاحقها ، أن تحدث تغيراً ما ، واذا لم يكن فى مقدور سنين الوجود ونظام الحياة ، الا أن يتكرر وقوعها على نمط واحد غير متناه ،

فلا جرم أن هنالك يتعطل التاريخ ، ويمسك عنه أن يبعث فينا من اللذة ما يسوقنا الى العناية به . فان تقبائل افريقية المستوحشة تاريخاً . ولكن تاريخها قد يصبح معروفاً برمته اذا وقفنا على نظام حياتهم اليومية أو السنوية علي الأقل ، أو نظام حياتهم خلال جيل على الأكثر . كذلك الحال في بلاد الصين . فان مافى الحياة الصينية من مظاهر السكون وعدم التقدم تجعل تاريخهم مقتضباً ضئيلاً على الرغم مما فيه من التعقيد والاختلاط . فان الوفا من الاعوام تمضى علي بلاد الصين لانسد من فراغ التاريخ أكثر مما تسده أيام معدودة في تاريخ أوروبا الحديث . أو كما يقولون شعراً : خمسون عاماً من حياة أوروبا ، خير من دورة شمسية في غيرها .

لذلك نرى ان الفكر من طريقين اثنين ذو فائدة كبيرة وشأن عظيم للمؤرخين . فاننا اذا تنظر في كل تغير يحدث في الطبيعة أو تبدل يقع في عالم الحياة الانسانية . نتساءل : أى أثر أحدث ذلك التغير في عالم الفكر ؟ وأية فائدة أو ضرر أو تقدم قد أحدث في عقول الناس الذين هم كشفوا خباياه وملاحظوا آثاره ؟ وهل ضاعف من معلوماتنا ؟ وهل زاد الى مجموعة أفكارنا وآرائنا ؟ وهل زادنا بعداً في النظر وامعاناً في التغلغل الى صميم الحقائق ؟ وهل أوسع من آمالنا وقوى من عواطفنا ؟ وبالجمل : هل أضاف جديداً الى مصالحنا ولذاتنا ؟ وهل أوسع من حياتنا الداخلية ، حياة الفكر ، فجعلها أكثر امتلاء وأقل فراغاً ؟

أما اذا نظرنا في التغير واقعاً في الاعمال الانسانية ونتائجها . فاننا نتساءل : ماذا كان أثر الفكر ، عالم الحياة الداخلي ، في احداث ذلك التغير ؟ وفي هذين السؤالين وحدهما ينحصر واجب المؤرخ اذا ما أراد ان يؤرخ في عالم الفكر الخفي .

ولا أضن أن هنالك ضرورة تقضى على في هذا المقام أن أبين عن هذا الاصطلاح - اصطلاح الفكر - محيطاً بمعناه من كل أطرافه. وفضلاً عن بعد ذلك عن الضرورة ، فاني أعتقد أن ذلك خارجاً عن طوق تجاريدنا . وقد يساق الكثيرون الى المطالبة بتعريف للفكر ، أو بيان أكثر من التعريف دقة في اظهار الصلة الواقعة بين الطبيعة والحياة والفكر ، علي أن أمثال هذه التعاريف يجب أن تترك للقارى ذاته ، اذا ما شعر بأن هناك حاجة تقضى عليه بأن يضع خلال تفهمه هذا الكتاب * وما انطوى عليه ، نظريات ذاتية يستخلصها من هذه المسائل في مجموعها . فوضع أى تعريف في مثل هذه الحال قد يحوطنا بكثير من أسباب التناقض ، غالب ما تقضى بنا الى التهورس والفوضى . واني لأعتمد في ذلك على ما تؤدى كلمة « الفكر » ذاتها من المعنى عامة غير محدودة بتعريف . على اعتبار أنها تنقل الى كل من الناس معنى ذاتياً يدركه بنفسه . معنى يؤهل به الى فهم هذه القضية العامة التي بدأنا البحث بالنظر فيها ، أو يسوقه الى الاعتقاد بوجود عالم خفي يقع وراء عالم الحوادث والحقائق البارزة ، حتي يستيقن من أن لذلك العالم الخفي طبيعة دائمة التغير ، مستمرة الحركة . أو يدفع به الى الايمان بأن هنالك علاقة وصلة بين هذين العالمين . وأن كلا منهما يحدث في نظيره أثراً ، هو نتيجة عكسية لفعل أحدهما في الآخر .

والعالم الخفي ، سواء أكان من ناحية الوجود الزماني ، أم من ناحية الخطورة والشأن ، هو المقدم على العالم الظاهر ، وسواء أكان مانسب من المسكاة والشأن لحيز الاستدلال والاستنتاج في عالم الفكر ، على ما في ذلك

* كتاب تاريخ الفكر الاوروي في القرن التاسع عشر .

الحيز من الجلاء والوضوح، مساويا أو غير مساو لما ينسبه الى حيز الاحساس والتصور، مشفوعا بحيز الانفعات غير المدركة، على ما فيه من الغموض والابهام، فعامة ذامسائل ليس من الضروري أن نجيب عليها في هذا الموطن. اذ يكفى أن نشير الى وجود عالمي الحياة والفكر، ليعرف بذلك الباحثون أننا لا نعنى بعالم الفكر تلك الآراء ذوات التعاريف المحدودة الجلية المنظومة في سلسلة ما فحسب، بل نشفعها بعالم الرغبات والانفعالات والاحساس والتصور، تلك التي تؤثر في حياتنا الداخلية، حياة النفس الخالدة، تأثيرها في العالم الخارجى.

وسوف أسوق البحث متحديا هذا المعنى في كل ما سوف اسطر في هذه العجالة من الكلام في تاريخ الفكر، مقصودا على عصر من عصوره وليس في تاريخ الفكر عامة. سأكسر البحث في تاريخ الفكر الانسانى على هذا العصر * الذى نعيش فيه، مشفوعا بلحظة في العصر الذى سبقه مباشرة، وهو العصر الذى يعيش فيه كاتب هذه الكلمات وقرأؤه، عصر لهم به المام وعلم مباشر، وذكريات قد تكون صحيحة، وقد تكون غير ذلك. كان هذا الاعتبار اكبر سبب حملنى على أن أفرغ قصارى جهدى في بحث تاريخ هذا العصر دون غيره من تاريخ الفكر الانسانى، مقتنعا باننى وقرائى اكثرمعرفة بهذا العهد على ما يظهر لى من أى عهد آخر، اذا تسنى لى أن أمضى في بحثه على الطريقة المثلئ. ولما كان كل شخص هو أقدر الناس على كتابة تاريخ حياته، كذلك يغلب على الظن أن أبناء كل عصر من العصور، على اعتبار ما، هم اثبت من يحيطون بتاريخ

الفكر فيه .

ولقد قام الكثيرون يناهضون هذه النظرية مناهضة كان مقدارها في كل الحالات رهنا على ماهو واقع بين الحوادث الخارجية من الاثر . تلك الحوادث التي يلحقها كثير من الكتاب بالتاريخ اعتبارا واسرافا . ويقال ان المعاصرين من الكتاب اذ يؤرخون في عصورهم ، لا يتخطون من التاريخ حد تدوين الحوادث ناظرين فيها من ناحية واحدة فتخرج من بين ايديهم ناقصة براء . والحقيقة أن المؤرخ احوج ما يكون الى استيراد اكبر عدد ممكن من المدونات المتنوعة . لأن أصح المدونات التاريخية وأقربها الى الحقيقة ، هي تلك التي تخرج من فكر اكبر الناس قدرة على الجمع بين شتات هذه المدونات ، فيجعلها كما واحدا ، فيستطيع بذلك أن يتجنب مواضع الزلل التي كثيرا ما تتغلغل الى صميم الابحاث من الاكباب على ناحية واحدة من نواحي النظر الفكري يعكف عليها الكاتبون ، ويمكنه أن يتنكب بذلك سبيل العناية في استقصا نواحي الاستبصار ، وأن يبعد جهد البعد عن الجهل الشخصي والتخبط والحكم على الاشياء بمجرد اللذة والهوى .

علي الرغم من هذه النقائص وأمثالها ، فان مدونات المعاصرين قد ظلت طوال الاعصر ، وستظل أئمن مصدر وأوثق منهل يعتل منه مؤرخو العصور المستقبلية ، الذين هم من الجائز أن يصلوا الى تمحيص براهينها ، والفحص عن أسانيدها ، فيجمعون بين شتاتها ، ويظهرون مواضع النفع فيها فتتمخض عن صورة من التاريخ اكثر ثباتا ، وأبعد دقة ، من صور العصور التي تتقدمها . بيد أن مدونات اللاحقين اذ تكون قيمتها محدودة بعصر ما ، فان تاريخ المعاصرين ، أهل الشهادة لما وقع في عصورهم ، على ما يكون فيها من السداجة والاطناب بل ومن التناقص ، سوف تبرز بعد مضي المئات

والآلاف من السنين من حيث البقاء والثبات والقيمة، مدونات اللاحقين على ماسيكون فيها من آثار الجهد والجهد الفنى . لان مدوناتهم سوف تكون نتاجا لما يبعثه فيهم وحى عصر غير عصرهم ، واقتناع بضروب من الاحكام العامة ليست من نتاج افكارهم . أو كما لاحظ جوته اذ قال :

« ان التاريخ يجب أن يعاد تدوينه من حين الى حين ، لا لأن حقائق كثيرة تكون قد عرفت على مر الايام ، بل لان أوجهاً من النظر قد تظهر فى أفق البحث العقلى ، ولان المعاصرين ، الذين هم ذوو ضلع كبير فى تقدم عصورهم وارتقائهم ، يساقون دائماً الى غايات يتهنون بها الى حيث تصبح ذات صبغة يقتدر بها على تدبر الماضى والحكم عليه بصورة لم تكن معروفة من قبل »

ان كثيراً من كتاب التاريخ الذين انبثهم هذا العصر ، سوف يظلمون قروناً عديدة موضع الفائدة ومرجع الجاذبيه العامة ، كؤرخين أبرزوا للعالم من العدم أساليب جديدة من البحث ، وانتحوا من النظر نواحى مبتكرة فى السياسة والاجتماع والرقى الأدبى ، أكثر منهم مقررى حوادث ومدونى وقائع يمكن الاعتماد عليها والثقة بها . وان طريقة النظر الموضوعى « Objective Method » التى يعكف عليها البعض منهم ، سوف ينظر اليها ، لا كطريقة ابتغوا بها التحرر من آثار التقيد والتقليد ، ولكن كطريقة لم يشعروا لدى اكبابهم عليها ، بما أوحى لهم من قبل تخيلاتهم ووههم الذى يتحكم فيهم التحكم كله .

غير ان الحقائق التاريخية التى يرجع تدوينها وتقديرها الى عقول عاصرت وقوع تلك الحوادث لها فائدة مزدوجة فى الكشف عن حقائق العصر الذى وقعت فيه . فان الحوادث ، والعقول التى تنصرف الى

التأمل فيها ، كلاهما يكمل نقائص الآخر ، في اخراج صورة اكثر كمالا وأقرب الى التمام رحماً . وشأن الحوادث والعقول في ذلك كشأن المادة والوجهة التي ينظر الى المادة من ناحيتها في تبعيتهما لزمان واحد . من هنا نسلم بان المؤرخين أمثال « ثيوسديد » و « تاسيتوس » و « ماكيفيلي » عبارة عن نماذج كاملة في فن كتابة التاريخ ، وان المذكرات التي يخلفها سياسيو العصور الحديثة عادة ، ائمن قيمة ، وأبعد فائدة ، وأطول بقاء ، من تلك القصص الموصولة بالحوادث المحبوبة الاطراف التي يكتبها مؤرخون لاصلة لهم بالزمان الذي يؤرخون فيه ، رغم ما يصرفون فيها من الجهد والعناء .

أما وقد انتهى بنا البحث الى أن مدونات المعاصرين للحوادث ذات قيمة خاصة بها مهما كان في تلك المدونات في منازع النقص ، فلا نخال أن يكون تدوين الافكار الا ابلغ من تدوين الحوادث خطراً أو بعد نفعاً وأعمق فائدة . لاسيما اذا اخذ « الفكر » على أنه الحياة الداخلية الكامنة لعصر من العصور ، ولم يقتصر معناه على ذلك الجزء الذي يدل على الفكر المحدود القاصر في الدلالة على منتجات الاقلام خلال زمان مامن الازمان . ذلك لان حزن عظيم من تلك الحياة الداخلية الكامنة لا يمكن أن يبلغ منه أحد بفهم أو معرفة ، الا شخصاً اشترك في تكوينها ومثل فيها من أوجه الحياة دوراً .

الآمال الغامضة المبهمة التي تيجش في صدور الآف المؤلفين من أبناء آدم وهم عاجزون عن اقناع شهوتها أو التعبير عن حقيقتها ، والسقطات والهزائم التي تمر في علم الحياة من غير أن يعرفها أحد أو يهتم بها انسان ، والرغبات التي تعيش في صدور الناس ممتدة في سلسلة من التواصل والتتابع

غير متناهية ، أو تتشكل بصورة مامن صور حياتهم ، والمحاولات التي
يتشبث بها الناس ابتغاء الوصول الى حل المشكلات العملية التي يعلوها
الطمع عليهم ، أو تبعث بها الحاجة في النفوس ، وتلك الساعات الطويلة التي
ينفقها محبو العلم سدى ، طمعاً في الوقوف على أسرار الطبيعة — جماع هذه
المجهودات الخبوءة في نواحي النسيان ، تكون ذلك الهيكل الذي نسميه
« فكر الامة » ، ولا يطفو منه علي سطح الحياة الا جزء ضئيلاً ، بارزا
في صورة من الأدب أو العلم ، أو الشعر ، أو الفن ، أو المنتجات المادية
الخاصة بفترة مامن قترات الزمان .

وان لدينا شيئاً آخر لا يقل عما سبق القول فيه قدراً ، وان كان اقل
منه ظهوراً للناس . فان ذلك القدر العظيم من الفكر « الكامن » هو
الذي أتم النضج وهو الذي استجمع مواد الاشعاع الفكرى وجعلها على اهبة
الاضاءة ، ان أشعل فتيلها شرارة من الانبعاث في التأمل والعمل . ان « الفكر
الكامن » عبارة عن القوة الدافعة العظيمة التي تستخزنها الازمان ، وتظل
مستخرجة حتى تفك عقالها العبقريه والكفاءات الفردية ، فتنبعث في
سبيل الحرية والنشاط .

لقد عرفنا الفلاسفة عند مقدار ما في الحياة العضوية من أوجه
الاسراف . خبرونا عن الآلاف المؤلفة من الجرائم التي تولد وتلاشى
عبثاً ، وعن مقدار ما ينثر من الحب سدى . والظاهر أن للمجهود العقلي
والادبي حظاً من الاسراف والعبث لا يقل عن حظ الحياة العضوية . غير
أننا اذا تأملنا في الحياة العقلية همس في روعنا اعتقاد يقنعنا بأن مبدأ
تعاون الاكثرية لا مبدأ التضحية الفردية ، هو السرفى نجاح الاقلية ،
وان الاتقان وليد الجهد المشترك ، وان الكثيرين لا بد من أن تتبدد

حبائهم ليصل واحد الى الغرض . أى شعور آخر غير هذا فى ممكنته ان يصبح سلاوى أولئك الامناء الشجعان الذين انفقوا اعمارهم ابتغاء الوصول الى حل مجموعة المشكلات الاجتماعية على ما فيها من مظاهر الاستعصاء، وعلى ما يحف بها من المشكلات ؟ أى سلاوى غير هذه لأولئك الذين يعملون على استئصال جذور الرذائل والتعاسة التى تفيض بها الحياة فى المدن العظمى ؟ أو للذين يقومون صارخين فى وجه المستبدين منادين بحرية الشعوب المستعبدة ؟ أو للذين يبشرون بالسلام عاملين على قتل روح الحرب والعسكرية ؟ أى شىء فى العالم أكثر ترويحاً على نفس مؤلف ينفق نصف عمره فى تأليف كتاب يخرج من آلة الطباعة ميتاً منبوءاً ، أكثر من اعتقاده بأن كاتباً آخر غيره قد ينجح فى المستقبل فيما حقق فيه اليوم ، وان اخفاقه ليس الاجزاء من الجهد السكامن الذى سوف يكون حجراً فى بناء التعاون فى سبيل ابراز غرض نافع ؟

غير أنه يحق لنا أن نساءل فى استطاع من من الناس أن يكتب تاريخ ذلك الجهد السكامن المحبوء فى ثنايا الفكر العام لامة من الامم ؟ من من الباحثين قد خص بقدر من الحساسية النفسية يمكنه من أن يدرك بشعوره وببصيرته الخفية ، فى أية ناحية من نواحي الحياة كان ضغط الحوادث اشد أثراً ، وفى أيها كان الجهد الانسانى اطول مدى ، قبل أن ينبثق فجر الحياة الجديدة ؟ من من المفكرين قد يبلغ خياله وتصوره ميلغاً يمكنه من تتبع تلك الخيط المشعة فى عقل الامم ، والتى تتجمع فى عقليتها الكامنة حالاً بعد حال ، بعد أن تسطع اضواء الحياة بنتائج الجهد المشترك ؟

نحن الذين نعيش مترقبين اشعاع الضوء محوطين بما يغشاها من العقبات والمتاعب ، نحن الجنود المحاربون فى سبيل الحق ، المنفقون حياتنا وجهودنا

في جوف المعركة ، لا بعد انتهائها ، نحن الذين يحق لنا أن نفخر بأن في قدرتنا أن نروى من منازع الآمال الجائشة في الصدور ، ومن أوجه الجهود التي قام بها كثير من أبطال الحياة الفكرية ، ومن تشعب نواحي الفكر ، رواية أقرب الى الحق رحما ، وأصدق قولاً ، وأثبت تأويلاً .

على أن لدينا مسألة أخرى نجد في مجنها لذة وخطراً . قد نتساءل الى أي عصر من العصور الماضية نستطيع نحن الذين عشنا خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر أن نرجع بتاريخ عهدنا الذي نفخر بأننا أوقف الناس على خباياه واعلمهم بما فيه ؟ لا مريية في اننا نعرف أن آباءنا وأجدادنا الاقربين هم الذين شاهدوا الحملة الانسانية التي قامت للقضاء على تجارة الرقيق واقتناء العبيد ، بل اشتركوا فيها . هم رجال الاجيال الذين قاموا بأكبر قسط من الاصلاح الحديث . هم الذين عركوا ذلك الانقلاب المبين الذي احده استعمال البخار والغاز . كما انهم من الذين اخذوا بضلع في حركة التعليم ونشره في أنحاء الارض . هم الذين شهدوا ثورة المانيا ضد الاستبداد البونابارتي . وادركهم « جوتة » في عنفوان رجولته ، فهزت عبقرية اعماق نفوسهم ، واخذوا بضلع في احداث طور الانتقال الذي أدرك الادب فاطلقوه من قيود العصور الاولى واحتذاء امثلة القدماء ، الى سلامة الذوق الحديث . ومسهم من شعر « بيرون » ما يمس القلوب ، فيصمها حره ، او يثلجها قره . وانصتوا لمفوهي الخطباء الذين انبتتهم الثورة الفرنسية الثالثة ، ورووا لنا ما كان من سحر نابوليون الاول على الملايين الذين مضوا به معجبين ، وله خاضعين .

ان الشطر الاعظم من تلك الصور الشقي لا تعيش بيننا اليوم الا في قالب من القصص يرويه الذين عاصروها ، او في صدور الذين شهدوها وامتد

هم أجلمهم ليرووا بأنفسهم أخبارها، ولم يتم إلا بعض منهم أن يخلدوا بأقلامهم في بطون الأوراق، أو يرثيهم على لوحة التصوير، ذكرها.. ليتروها ذخرا للأجيال القادمة. لم نسعد بسماع كلماتهم فحسب. بل سعدنا بما استقرأنا في ملامح وجوههم من آثار الشدائد التي عانوها والصعاب التي شهدوها، ورأينا في البريق الذي تبعه عيونهم موحيات الحمية ومطاوعات الأمل. وشهدنا في نظراتهم وفي أصواتهم المرتجة ذكرى ما وقعوا عليه من شهوات الصبا ومشرات الشباب والقوة. على أننا لم نسعد بهذا وحده. فأنهم قد حملوا الينا شهادة ناطقة وأورثونا تراثاً حياً دائماً. غير أنه يخرج عن طوق مستطاعنا أن نورث أولادنا ذلك التراث كما تسلمناه من يد آبائنا: فانه إن ير من بين أيدينا غير مدخول بتحويل أو تغيير.

إن هذا التراث هو «اللغة» التي علمنا إياها آباؤنا منذ كنا في المهد أطفالاً. على أنهم قد نالوا من اللغة، على غير علم منهم، بالتغيير والتبديل. غيروا اللهجة والكلمات والجمل التي تلقوها عن سبقهم، أذ ركزوا في تلك الكلمات والجمل طرق الكلام التي شاعت خلال سنينهم وأدججوا فيها روح عصرهم، ومزجوها بفكراته وخيالياته. وتلك الجمل الممسوسة بأثر الطرق الكلامية الخاصة بهم، قد ورثناها منذ الطفولة. فكانت المادة التي تكونت منها عقولنا. وكأنها صدفة محبوكة الأطراف لا بد من أن تسبك أفكارنا على نموذجها. أو هي الأداة التي نعدم بدونها طريقاً للتعبير عما يخالج أنفسنا من الفكر أو الخيال.

من لغتهم، ومن جملهم المركبة، وامنألمهم الجارية على السنتهم، عرفنا كيف نفرق بين ما هو خطير مفيد، وبين ما هو تافه حقير. ومنها استمدت عقولنا مختلف الموضوعات التي تشغل أفكارنا، والآمال التي تحيى في

صدورنا ، والمبادئ التي نعكف عليها ، والوسائل التي نتخذها في الحياة هادياً ومرشداً . ولا ريب في أن يجعل هذه الاشياء قد ورثوها هم عن غيرهم . غير أن مآمدتهم به قوائم العاقلة من ضروب الفوارق العقلية الدقيقة ، ورفاة احساساتهم ، وعريض آمالهم ، جماعها أثر تأثيراً عظيماً في جوهر اللغة . اذ انهم بما اضافوا وما بدلوا ، قد استغلوا ما في عنصر اللغة من مطاوعات اللين والمرونة ، وما زالوا يعالجونها حتى جعلوها اكثر تكافؤاً مع ما تتطلب حاجاتهم ، ومقتضيات حياتهم .

لقد ورثنا اللغة مدخولة بما حور فيها آبائنا ، فورثنا معها روح الجيل الماضي . تلك الروح التي تسوقنا كرها الى مناحي من التفكير بعينها ، وترغمنا على أن نلزمها ، وتضع في طريقنا من الصعاب ما يجعل جنوحنا الى غيرها متعذراً . اللهم الا اذا تدرجنا في تنكيبها تدرجاً ، وابتعدنا عنها متخطين حواجزها خفية متسللين ، حتى نستطيع ان ننبه في كامن نفوسنا نزعاً الى فكرات لم تكن نتدر في خلدنا ، واذواق لم نألغها ، واحساسات لم نعدها مشاعرنا .

يعكف الكثير منا على الافكار الموروثة ، وعلى مناحي التفكير المفطورين عليها ، الرئيسية في اخلاقهم منذ الطفولة . وقد يستعين البعض بتعلم اللغات الاجنبية ، او بالهجرة ابتغاء العيش في ممالك قاصية عن موطنهم ، على بلوغ درجة من الرقي يسهل معها ان يستوعبوا أساليب جديدة للبحث والتفكير . على أن القليلين منا هم الذين يفوزون بابرار شيء من الفكرات المبتكرة المخدرة ، فيكسرون بذلك صدفه اللغة المحبوكه اطرافها على التعبيرات المتداولة ، فينحتون كلمات جديدة وتعبيرات مستحدثة لانفسهم ، يصوغون فيها فكرات ازمانهم المندفعة في سماء العقول اندفاع السيارات

في الفلك المرسوم ، ويحددون بها روح زمانهم ليبرزوها في صورة تيكاد
تتخيلها امامك تمثالا منحوتا . والمصطلحات اللغوية لا تثبت أن تستعمل
مرة حتى تدبغ . حتى انك لا ترجع النظر كرة الى الماضي جيلا واحداً ، الا
تتري مقدار ارتقاء الفكرات والاذواق ، ممثلا فيما دخل على اللغة واساليبهم
من التغير البين .

من هنا نجد أن كاتب هذه السطور وقارئها الذين يرحمون بداكرتهم
الى أواسط القرن التاسع عشر ، والذين امدهم تعليمهم وتشقيفهم بتلك الفكرات
التي ذاعت منذ جيل من الزمان ، هم وحدهم الذين في طوقهم أن يفخروا
بأن لهم اكبر قسط من العلم بما وقع في الشطر الاعظم من هذا القرن ،
وبالمستحدثات التي انتجها ، والفكرات التي مهد لها سبيل الذبوع والانتشار .
وما غرضي من كتابي هذا الا الوصول الى هذه النتيجة . أريد أن
أنتشل به من هوة النسيان السحيقة تلك الاشياء التي يلوح لي أنها ميراثنا
الخطي ، وأن التي شعاعا من النور على تلك الحياة الفكرية التي تكاد تختتم
صفحتها باختتام عصر من أزهر عصور الدنيا بالعالم ، وأكثرها نصرة له .
سوف أبذل جهدي في أن اتعقب خطى تلك الحياة الفكرية ، وأن استمعين
بكل ضروب المعلومات التي أقع عليها في مدونات غيري من الكتاب
والباحثين ، على ابرازها في صورة اكثر تلاؤماً وأشد تكافؤاً ، بحيث
تعطى الذين يتبعون رأيا مامن الآراء الخاصة بوجهة النظر التي نظر بها في
ذلك العصر الى عالم المادة والحياة ، فكرة عامة تربهم كيف كان أثر القرن
التاسع عشر في تبديلهم عقليا وروحيا . كذلك لم يكن من قصدي أن
اكتب تاريخاً ألم فيه بمختلف التغيرات السياسية الظاهرة ، أو تقدم
الانتاجية الصناعية . أما التغيرات السياسية الظاهرة فقد أصبح أطوع

قيادا لأولادنا منا . واما الانتاجية الصناعية ، فذلك اشياء سرعان ما تنسى
وقد تندمج وتندمج فيما سوف ينتج المستقبل من مخترعات ووسائل ، فلا
يكون ما نرى منها في زماننا الا مبهدات لما سوف يعقبها . كذلك لست أريد
أن اكتب تاريخا للمعرفة والعلم ، ولا قصة الادب والفن . فان هذه الاشياء
ان كانت بذاتها نتاج الحياة الكامنة ، بل ان تلك الحياة تتضمنها ، فانا
لن نلجأ الى بحثها الا كوسائل لتمحيص النتائج التي قد نصل اليها . أما
ماسوف يستغرق أكبر قسط من عنايتي فذلك الآمال والغايات الحية
الشاعرة التي تحدث أية حركة ارتقائية ، سواء أفي السياسة أم في الاجتماع ،
ان وقعت عليها . أما اذا لم أقع عليها فسانصرف الى الكلام في النتائج التي
ابرزتها حياتنا الداخلية الكامنة ، والاسباب التي انتشرت بها المعرفة .
أو طبق بها العلم ، والمبادئ التي تختفي وراء صور الأدب والنقد ، أو ذلك
الكنز الروحي الدفين الذي يعتمد الشعر والفن والحركات الدينية الى
كشف خفياته والابانة عن اسراره . وفي الواقع اريد ان ابحث ذلك
الدور الذي لعبته حياتنا الداخلية الخفية ، حياة الفكر ، في تاريخ القرن التاسع
عشر ، مشفوع ذلك بأوجه التقدم والارتقاء وضروب الكسب التي كانت
نتاجا لوقوع الحوادث والتغيرات الظاهرة في عالم الحياة العامة .

اما وقد سلمنا بأن العلم الذاتي والتجربة كلاهما ذو خطر كبير في القيام
بعبء ما خططت لنفسى ، وما دام علمنا قد دلنا على ان عدم الاندماج في
الحياة الكامنة لعصر من العصور ، ان ينتج الا تاريخا يقتصر على ذكر
الاسماء أو يتناول بعض الآراء بالنقد ، فانا لا محالة نسلم مع هذا بأن هذه
الامور عامة ، بواعث تحد في وجهنا مجال الانبعاث الى ما وراءها . ولذا
اشعر بأن مقصور على أن **أ**كسر مجنى على الفكر الاوربي وحده .

لم تكن فكرة الاختصار في التاريخ على ناحية بعينها من نواحي الفكر موجودة منذ قرن من الزمان لان ذلك كان محتوماً علينا . أما وقد اخذت صورة من صور المدنية الحديثة تتكون حول الشاطئ الآخر من المحيط الاطلانطبقى ، يزعجها شعب قى موفور القوة والنشاط بكل مهيئات البناء والتطور ، فلا يسعى مع هذا الا أن اسلم بأمرين : الاول : أن هنالك عالماً جديداً يزداد كل يوم خطره ، ويتضاعف شأنه . فى حين أنى لست على علم بشيء من خصائصه وحياته ، ولن أشعر اذا ما اردت انه أؤرخ فى حياته الداخلية الكامنة الا بالعجز والقصور : والثانى : ان عجزى عن التاريخ فيه لا يضارعه الا عجزى عن أن اصور لنفسى ما يكون من شبح التنقيف الاوروبى فى عين باحث بعيد عنه ، مبتوت الصلابة ، غير ناظر اليه الا بعين الدنيا الجديدة .

ان الدنيا الجديدة تنمو وتكثر . لامن جهة العدد والثروة الالهية فحسب ، بل من جهة الاستعاق الفكرى ، كلما زادت امعاناً فى النشوء العقلى والتطور الروحى . لذلك لانشك فى انها سوف تعاني مشقة الرغبة فى التاريخ فى حياتها الكامنة وعناصر تنقيفها ، لتعثر فى درج ذلك البحث ، على الخصائص التى تفرق بين مدينتها ومدينتنا . غير ان الميول التى يتجه فيها ذلك التنقيف الحديث غامضة على ، بل تكتنفها ظلمة موحشة . وليس لدى ما يحول دون اعترافى بالعجز عن ان اقضى فيها بحكم ثابت محدود .

ارانى مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الحياة الظاهرة المرئية فى حياة البشر رأى العين والحس ، ليست سوى وعاء يتمضن مادة خفية لاتصل اليها الحواس ، او هى صدفة يتكون فى صميمها جنين المستقبل . لذلك لا آنس

من نفسى قدرة على الافصاح عن ماهيتها . ولهذا لا اريد ان اتناول من حركة
التثقيف العام التى ولدها القرن التاسع عشر الا ما احتك منها بالفكر الاوروبى
احتكا كما مباشرا ، وكان فيه من الحياة الاوروبية اثريين .

على اننى سوف اقصر بحثى فى الفكر الاوروبى على مركزه ومحوره .
سأذكره على الآداب الفرنسويه والالمانية والانجليزية . ولست انكر ان
الآداب الايطالية والسيكانديناوية والروسية محيطه بذلك المركز ، بل
كثير ما اثرت فيه تأثيرا ما . غير انى فيها اقع على لغات لم آلفها ونزعات
لم أثبتن ماهيتها وحقيقتها . فكنت اشعر بانه يستحيل على ان اتميز شيئا
من صبغة الحياة الجديدة الكامنة فيها . وكانت مسؤوليتى تزيد فى نظرى
كلما زدت اقتناعا بانى ان تناولت تلك الآداب ببحث ، اضطرت الى
ان الزم نفسى عن السعى وراء الكشف عن اسباب وبواعث لم تهتألى
سبل الابانة عن خفياتها ، لا باغ منها بدرس يرضى الحق والضمير .

يقتصر بحثنا على الفكر الاوروبى - أى على الفكر فى فرنسا والمانيا
وانجلترا - خلال الشطر الاعظم من القرن التاسع عشر . ومهما أحاط بهذا
البحث من حدود الزمان والمكان ، فانه لا يزال شاقا متشعب الاطراف
أشعر منه باستيحاش وخوف . ومع هذا فقد جعلت رائدى فى كل مباحثى
التى سوف اسوق بنفسى فى غمراتها ، وفى كل الصور والملاحظات التى
سوف أبرزها ، أن لا أهمل فى بحث كل منها فكرة الوحدة التى تجمع
بينها . وما تلك الوحدة فى نظرى سوى ذلك الشئ الذى ألزمتنا اياه روح
التقدم الذى وقع فى عصرنا . وهى فى ماهيتها نتيجة ما بذل من الجهد
خلال القرن التاسع عشر . فلقد كان يتعذر عليك منذ قرن واحد ، لا بل
منذ خمسين عاما فقط ، أن تتكلم فى « الفكر الاوروبى » على الوجه الذى

أتكلم به الآن. فان القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هما القرنان اللذان صيغ فيهما العلم بصبغة الوطنية . لان فيهما حلت اللغات الوطنية الخاصة بكل أمة من الأمم ، محل اللغة اللاتينية العامة في تواليف الآداب والعلم . وفيهما بدأت تتميز الآداب بميزات الشعوب وتصيغ بصبغتها ، وفيهما بدأ الفكر يستقل باستقلال الأمم القاطنة في غربي أوربا استقلالاً معنوياً . لهذا تجد أن الناس في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قد بدؤوا بأسفار طويلة قضوها في التأمل والدرس ، متنقلين من مملكة الى أخرى ، ليخصوا أوطانهم بما ينقلون من أفكار مبتكرة أو أساليب للبحث غير مألوقة . على أن هذه الاسفار قد عقبها ذبوع الافكار الحديثة . فوفد الى انجلترا « فولتير » Voltaire . عام ١٧٢٦ حيث نشأت فلسفة « نيوتن » Newton . و « لوك » Locke . ولم يكن قد وصل الى فرنسا علم بهما . وساح « آدم سميث » Adam Smith في فرنسا عام ١٧٦٥ حيث درس طريقة « كوينسي » Quensay الاقتصادية ، واكب على مباحث « الفيزيوقراطيين » Physiocrats . يدرسها الدرس الوافر ، ومنها كون فكرته التي بنى عليها فلسفته الاقتصادية التي أخرج فيها كتابه « ثروة الأمم » The Wealth of Nations . وخلال الربع الاخير من القرن الثامن عشر . أسس « ا . ج . فرنز » A. G. Werner كاذمية التعدين ، التي كانت قد وجدت في صورة معهد قروي عام ١٧٦٦ ، فأصبحت مركزاً من أعظم مراكز العلم والتنوير العقلي في أوربا ، واليها اليوم يسعى طلاب العلم من اقطار الارض قاطبة ليتلقوا تعاليم اساندها العظام . وفي أواخر القرن التاسع عشر هبط « وارد سوورث » Wordsworth و « كوليرج » Coleridge المانيا ، ولم يعد « كوليرج » الى انجلترا الا مزودا بفلسفة « كانت » Kant .

وفلسفة « شيلنج » Schelling. ولا ننسى مدام « دى ستايل » M. de Staël. فانها لم تكذب تسمع ان في المانيا حركة ادبية حديثة تناقل اخبارها بعض مهاجرى الثورة الفرنسية ، حتي عمدت الى دراسة اللغة الالمانية باقصى ما وصل اليه الجهد والنشاط ، مقتنعة بأن صورة حديثة من صور الفكر قد انبتها العقل الالماني . ثم زارت المانيا من بعد ذلك مستصحبة « بنيامين كونستان » Benjamin Constant في أواخر عام ١٨٠٣ ، وكرة ثانية عام ١٨٠٧ . ومن ثم كان كتابها الذي اسمته « عن المانيا » De L'Allemagne نتيجة سياحتها . وبينما كان « كولبرج » ومدام « دى ستايل » يستنزلان وحي تلك الحياة الجديدة التي بعثتها عبقرية « جوتة » Goethe. و « شيلار » Schiller في « فيمر » Weimer. كان طلاب العلم في أنحاء القارة الأوروبية يولون وجههم شطر باريس ، حيث ظلت تلك المدينة بضعة عشرات من السنين محور البحث العلمي ومبعث الاساليب الحديثة ، وحيث تركزت الأفكار العلمية المبتكرة في قطة ، واخذت تشع بنور المعرفة .

لقد ظلت باريس أكثر من نصف قرن مهبطا لوجي الأفكار العلمية ، حتي أن فلاسفة الانجليز الذين ظلوا منذ زمان « باكون » Bacon و « نيوتن » متتبعين تقليد الاستقلال بأساليبهم الخاصة في البحث ، قد اقتنعوا في أواخر العقد الثاني من القرن التاسع عشر . بان اسم « نيوتن » العظيم لا يقوم بذاته كفيلا بأن طريقته العلمية بالغة أقصى حد من المثانة والثبات ، مستندين في ذلك على مارأوا من اوجه التبديل والارتقاء التي احدثها فيها رياضيو القارة الأوروبية . ولقد وفدت تلك الاساليب المبتكرة الى انجلترا بفضل ثلاثة من خريجي جامعة « كامبردج » هم « هرشل » Herschel و « باييج »

Babbage « وبيكوك » Peacock. ترجموا مقالة « لا كروا » Lacroix.

ففتحوا بذلك ميداناً للبحث الرياضى كان مغلقاً ، وبدؤوا للتفكير الرياضى عهداً جديداً . وبعد أن مضى على ذلك العهد خمسة عشرة سنة ، توافد طلاب العلم من نواحي الدينا الاربع على بلدة «جيسن» Geissen الالمانية ليتلقوا فى كلياتها علم الكيمياء الحديث ، وأساليب البحث التى كانت تلقى فى معمل « ليبج » Leibig . وكانت تلك الاساليب من قبل طرقاً خاصة ، مقصور نفعها على المعامل التابعة لبضعة أفراد من العلماء .

ولقد يتذكر البعض منا ما احدث ذبوع فلسفة « اوغست كونت » Auguste Comte بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٤٠ ، تلك الفلسفة التى ظلت بلا اثر بين فى بلاده فرنسا ، ولم تكسب مركزاً ذا شأن فى الفكر الانسانى الا بما كتب فيها «جون ستيوارت ميل» J. S. Mill ومدرسته وتابعيه ، وبما ترك فيها من صور الفكر الخاصة بالانجلترا ، ومن ثم عادت الى فرنسا ثانياً بعد مضى جيل تام على وفودها الى انجلترا .

حدث مثل هذا المصور انجليزى صرف همه الى تصوير المناظر الطبيعية . فقد ظل « كونستابل » Constable مهملاً حتى عرضت صورده فى فرنسا عام ١٨٢٤ ، فحدثت اثراً عظيماً فى مصوريها الى حد انهم يعتبرون عرضها عهداً جديداً تناول تصوير المناظر الطبيعية فى فرنسا بأعظم تطور وقع فى تاريخ هذا الفن .

ان امثال هذه السياحات الاستكشافية فى عالم الفكر والنشاط العقلى ، أصبحت مستحيلة فى العصر الحاضر . لان العلم خلال القرن التاسع عشر قد لبس ثوب الشعوبية . ومعاهد العلم المستقلة المبتوتة الصلات بغيرها ، أخذت تقل وتزداد ندرتها حيناً بعد حين . فان التراسل ، وذبوع

المجلات الدورية ، والتمائم الجماعات العلمية ونشر مقرراتها ، قد كفل للعالم أن يظل محيطا بكل ما تخرج العقول من المستكشفات الحديثة منها ضؤل شأنها . على أن صبغه العلم الوطنية لا تزال باقية . غير أنه لا يمكن العثور عليها الا في دقات الفكر البعيدة القصية ، كخطرات النفوس الخفية ، والمصطلحات الكلامية التي لا تجد بعض اللغات متسعا لنقلها الى ابنائها . ولعلم ، كما لدورة الليل والنهار ، غسق وفجر ، وله صبح تختلط به خيوط الفجر ، وله ضوء ابلج لم يشبه من ظلمة الليل دنس . غير أن ضوءه الا بلج قد نما وانتشر وزاد اشعاعا خلال القرن التاسع عشر . حتى أننا نستطيع أن نتكلم في نزعة الفكر الاوروبي في مجموعه اليوم ، اذا قصرنا الكلام على الفكر في فرنسا والمانيا وانجلترا ، في حين اننا لم نكن لنبلغ الى ذلك في الزمان الفارط .

وانى مع احتفاظى بغرضى الاول ، سوف أسوق مباحثى فى اكثر جهات الفكر الاوروبي اتساعا واخصبها انتاجا .. كيف كانت نشأتها ؟ وكيف بلغت الى ما نراها عليه ؟ وماذا كان أثر كل امة من الامم فى تكوين مجموعة الفكر العامة ؟ وما هو حظنا من الجهد فى ابتائها بالجديد وتزويدها بالحديث ؟ وما هى التغيرات التى انتابتها خلال القرن التاسع عشر ؟ ولكن قد نضيف الى هذا سؤالا يترتب عليه ما سوف نتبع ازاء هذه المهمة من طرق البحث . قد نسأل كيف نصل الى الجمع بين ما نفرق من مجموعة الفكر ؟ كيف نستطيع أن نفرق بين ما هو نتاج جهدها وبين ما هو نتاج جهد غيرنا ؟ ان لدينا طريقة واحدة . غير انها ليست الطريقة التى سوف تتبعها على وجه الاطلاق ، وأن كانت طريقة جديدة بانعام النظر والاعتبار . لقد أبنت من قبل كيف أن التغيرات التى تنتاب عالم الفكر تتوزع

في عنصر اللغة المرن ، وفي الاساليب التي يبتكرها العصر . ان دراسة تلك
التغيرات التي انتابت الكلمات اللغوية خلال العصر ، والاساليب التي تعاقبت
على ثلاث اللغات الرئيسية في اوروبا - الفرنسية والالمانية والانجليزية -
لقدلنا واضح الدلالة كيف ومتى نشأت وشبت المفكرات الحديثة ، وكيف
ثبتت وتحددت معانيها بكلمات او مصطلحات لغوية ؟ ولا يساعدنا هذا
البحث على اكتشاف الكيفية التي تمت وترعرعت بها الفكرة الأوروبية
فبحسب ، بل يعرفنا كيف هاجرت المفكرات الفردية والمذاهب من امة
الى امة ، وكيف انتقلت من شعب الى شعب . فضلا عن هذا فان هذه
الطريقة لتعرفنا بأية من الوسائل وجدت المفكرات الفردية ، التي نشأت في عقول
تلك الامم الثلاث مكانا حريزا تنمو فيه وتلقى بذرها .

ان كل من تعتمد الترجمة والنقل من احدى هذه اللغات
الى غيرها ، سواء أكان نثراً ، أم غناً منظوماً ، أم فلسفة أم شعراً وصفيّاً ،
لا بد من أن يكون قد عانى ضرورة الاكباب على دراسة طبيعة الفكر ، أو
المعنى الذي تؤديه الكلمات أو الجمل دراسة تامة . لا بد من أن يكون قد
سبق الى معرفة ماهو شائع بين اللغات جميعاً وبين ما هو خاص بكل منها ،
والمفكرات التي تعبر عنها المصطلحات .

ينسب الى « جوته » عادة انه خالق تلك اللغة ، وذلك الاسلوب ،
الذي برز فيهما اجمل ما في الادب الالمانى الحديث . ولن نعثر على كاتب
آخر ، سواء أفي المانيا أم فرنسا أم انجلترا ، احدث ما احدث « جوته » من
التأثير البين في آداب القرن التاسع عشر . غير اننا مع هذا لانفصل عن
أن عظماء كتاب فرنسا الروائيين وفلاسفة المانيا الميثافيزيين - اصحاب
ماركس والطبيعة أو الفيزييين - والعقول الشعرية الخيالية التي ابتكرها انجلترا

الحديثة ، جماعهم قد أضافوا الى مجموعة الكلمات ، وزادوا الى لغاتهم عدداً عظيماً من التعبيرات اللغوية ذوات الفائدة الجلي . ولقد كان « لكارليل » - Carlyle - اعظم الأثر في نحت كثير من النعوت والكنى التي استمدوها من اللغة الالمانية ، وأدخلها في تضاعيف اللغة الانجليزية . كذلك قد صرف « ماتيو أرنولد » Mathew Arnold

جهده في مثل هذه السبيل ، حيث استمد من مؤلفي الفرنسيين مثل « سانت بوف » Sainte - Beuve وغيره من أعضاء مدرسة « التحليل النفسي » * في الادب ، Introspective School ، كما استمد من « جوته » و « هين » - Heine . - ولقد كانت المانيا أقل حظاً في نشر كلماتها اللغوية الخاصة بها . فان استمداد اللغة الالمانية لادماج الكلمات الاجنبية عنها واستعمالها من غير تحوير فيها أو تبديل ، قد أثر تأثيراً عظيماً في صبغ الاسلوب الالمانى بصبغة التعقيد ، حتى فقدت اللغة الالمانية مرونة أسلوبها وجمالها وعنصرها الشعري . واني لارجح أن الباحثين سوف يعرفون عما قريب ان ما طرأ على مفردات اللغات الحديثة من سعة المعنى ، لا من جمال اللفظ ، راجع الى تأثير العلوم Sciences على الادب وحركة التشقيف العام . فان كثيراً من الكلمات المتداولة المعروفة قد حازت من تلك الطريق معان جديدة أكثر سعة وابعد ضبطاً .

ان كلمة « نماء » Development الغامضة المبهمة ، قدر جرحتها في الاستعمال

* سانت بوف (١٨٠٤ - ١٨٩٦) لم يكتف بفهم الادب من البيئه أو من العوامل الاخرى بل اراد ان تكون صلة الادب بين الكتاب انفسهم وبين امزجتهم وخواصهم النفسية والعقلية .

كلمة « نشوء » Evolution. كذلك قد أصبح اسم كلمة « Differentiation »
 « تفريق او تعضون » معنى فلسفياً حديثاً ، عدى معناها الرياضى . كذلك
 اذا نظرت الى كلمة « Positive. » « ايجابى » أو « يقينى » فأنت تجد
 . أنها قد حازت معنيان جديداً ، محدداً تمام التحديد لم تكن لتدل عليهما
 من قبل ، عدى معناها المنطقى . وكلمة « Energy » « نشاط » -
 قد تضمنت معنى جديداً ، غير معناها العام ، وغير معناها الفلسفى الذى
 خصها به « أرسطوطاليس » Aristotle ، حيث أخذت فى انجلترا ، ومن
 ثم فى بقية الممالك الاوربية ، مكان كلمة « Force » أى قوة ،
 كاصطلاح اكثر ضبطاً المراد ، وأدل على المقصود . واليك كلمته
 « ارتباط أو تبادل » - Correlation « وحفظ أو بقاء » - Conservation
 فانهما على علاقتهما بكلمة « Energy » - نشاط - اصطلاحان لهما قيمة
 علمية خاصة . ثم كلمة « الاصلح » Fittest ، واستعمال « التنافس على البقاء »
 Struggle for existence ، فانهما يدلان على شيئين مختلفان كل الاختلاف .
 عما كانا يدلان عليه منذ خمسين سنة خلت . ثم لديك اصطلاح « تام »
 Exact « وعلم » Science فانهما كذلك يدلان على شئ لم يكونا يدلان
 عليه من قبل .

ولقد خرجت اللغات من المذاهب الحديثة التى ذاعت فى حدود المعرفة
 الانسانية والادراك العقلى باصطلاحات فلسفية حديثة منها « اللاشاعر »
 « Unconscious » « والمجهول » Unknowable ، « واللادرى »
 Agnostic ، وهى تدل على مناحى كاملة من الفكر الحديث .

ولا مشاحة فى أنه من أبغث الاشياء على تحصيل الفائدة أن يتبع
 الباحث أصول تلك الكلمات والجل وأن يرجعها الى مناشئها الاولى ، وأن

يستعمق في بحث تلك المعاني التي كسبتها الكلمات الشائعة المعروفة . أنك
ان تتبعت هذا البحث في ثلاث اللغات الرئيسية في أوروبا ، كان هذا بعينه
أقرب الاشياء الى البحث المنظوم لمعرفة حقيقة تلك التغيرات التي انتابت
الفكر الحديث .

وليس لدينا من ضرورة تلزمنا ان نتذرع في الوصول الى غرضنا
بالعكوف على نظرية ما اتخذها قاعدة لما نرى من العلاقة بين المدنية
والفكر واللغة . فان القرن التاسع عشر لم يعدم شيئاً من هذا ، منذ
عصر « دى بونالد » De Bonald * الذي لم يكن يرى في اللغة الا تنزيلا
قديمياً ، الى أحدث العصور وأكثرها تشبهاً بروح العلم ، أى عصر
« ماكس مولر » Max Müller الذي مزج الفلسفة بعلم اللغة ، * متتبعاً
نفس الطريقة التي أصبح بها علم الفلك في نظر الكثيرين مسألة تحليل
فحسب « Une question d'analyse » . على أننا نستطيع ان نوفق من ناحية
ما بين « دى بونالد » و « ماكس مولر » . فأننا كأفراد ولدنا وربينا في
عصر تمدن وتنقيف عقلي ، نبدأ عادة بالنقاط الالفاظ والكلمات ، قبل ان
نستوعب المفكرات الواضحة ذوات الضوابط المحدودة . لهذا يخيّل لنا
ان فكرة « دى بونالد » راجحة ، مالم نستعمق في البحث في أصل اللغة والفكر
ونشوبها . ثم انظر الى ذلك السنن الهين الذي ندخل به من طريق استعمالنا
للغة آباءنا الى ذلك التيه الموحش المتراعى الاطراف ، تيه التفكير العقلي
الصرف . فان هذا الامر ليكاد يكون معجزة فيها من أثر الوحي مافيها .

* دى بونالد - ١٧٥٤ - ١٨٤٠

** كتاب مولر (علم الفكر) عام ١٨٨٧

غير أنه ليس من قصدى كما قلت من قبل ان أمضى فى دراسة الفكر الاوروبى ونشوءه خلال القرن التاسع عشر من طريق التحليل الدقيق لاجه التغير والرقى التى طرأت على اللغات الرئيسية . لان ذلك لا يتيسر الا لاولئك الذين نالوا قسطا وافرا من العلم بمفردات اللغة لم يتح الا لمن كتبوا القواميس والمعجمات الكبرى مثل « جريم » Grimm. و« لتيريه » Littré. « وموراى » Murray : وانى وان كنت أشعر من نفسى بالعجز عن بلوغ هذا القصد ، فلدى مسألة واحدة تضطرنى الى الدخول فى بحث غراما طبق Grammatical. - يتناول كلمة « الفكر » Thought ، وكيف تعبر عن المعنى الذى أدركه منها فى اللغتين الفرنسية والانجليزية ؛ وكيف تترجم تلك الكلمة ؟ فان الموضوع الذى نكتب فيه غير مقصور على الانجليزية وحدها ، بل يتناول الفرنسية والالمانية . لهذا يجب ان يكون له - أى للفكر - كلمة يعبر بها عنه فى اللسانين الفرنسوى والالمانى .

انى اعتقد ان كلمة « Pensée » تعبر فى الفرنسية على وجه التقريب عن ذلك الشيء الذى يعبر عنه فى الانجليزية بكلمة « Thought » أى « فكر » على أنه من الصعب ان تعثر فى الالمانية على كلمة تؤدى هذا المعنى ولقد ترددت حينما فى الاختيار بين « Geist » وكلمة Weltanschauung وهما اصطلاحان كثر ما استعملا ليدل على الحياة الكامنة لعصر من العصور . غير انى صممت فيما بعد على استعمال كلمة « Den ken » ، لان فى هذه الكلمة ما يناقض المدرك من كلمة الحياة « Life » و« الفعل » Action - Leben und handeln . وهى تدل على العالم الداخلى . فى حين ان مضاد Geist هى كلمة Stoff أى « مادة » Matter فى الانجليزية . وكذلك كلمة Weltanschauung فآها فضلا عما تدل عليه من عمق

التعبير، وعلى كونها غير قابلة للترجمة الى لغه أخرى، فانها تدل على نتائج الفكر وثمراته، أكثر من دلالتها على الفكر ذاته.

فاذا انتقلنا من البحث في الكلمات الى الموضوع ذاته، وجدنا أن

- مافي الاصطلاح الانجليزى من دقة التعبير والتحديد قد صحبه انتشار كثير من المؤلفات فى الموضوع. على أن الفكرة فى فلسفة التاريخ ترجع فى الأثر إلى مفكرين انبتهم القارة الاوروبية وعلى الاخص «هردر» Herder «وهيجل» Hegel «وكونت» Comte «وجيزو» Guizot.

«وفولتير» فى كتابه «عصر لويس الرابع عشر». فان مؤلفات هؤلاء

سوف تظل مثالا لما يصور به عصر من عصور المدنية. غير اننى مع هذا

مقتنع تمام الاقتناع بأن مؤلفات «كارليل» «ويوكل» Buckle «ودرايبر»

Draper «وليكي» Lecky «ولسلى ستيفن» Leslie Stephen وعلى

الأخص مقالة «مارك باثيسن» Mark Pattison من حيث السعة وبعد

النظر، هى التى ركزت فى عقولنا معنى كلمة «فكر» Thought كأكثر

المصطلحات كفاءة على تحديد مانعنى من الحياة الكامنة أو النشاط العقلى

خلال عصر من العصور أو أمة من الأمم. لهذا سوف أعكف على استعمال

الاصطلاح الانجليزى لأنه عندى أكثر المصطلحات ملاءمة وقرباً من

أذهان القراء، وأمت فى الوقت ذاته الى الذين يعارضون فى استعمال

الاصطلاح الفرنسوى وما يناظره فى الألمانية لغموضهما، أن يبحثوا عن تعريف

لما اقصد من الكلمة الانجليزية Thought. أى «فكر».

ولست أعلم أن فى الادب الفرنسوى برمته كتاباً فى تاريخ «الفكر»

Histoire de la pensée تناول بالبحث عصراً طويلاً أم قصيراً

من عصور النشوء الفكرى. على اننى اعرف فى الادب الالماني عدداً

من المؤلفات في تاريخ الفكر . غير أن معظمها قد استعمل كلمة Weltanschauung. أو أوسع من معنى الفكر فجعله يدل على عصر من عصور المدنية . Kulturgeschichte أو حدد دائرته فأصبح قاصراً على تاريخ الادب وحده . وجماع ذلك عائد الى حاجة اللغة الالمانية الى اصطلاح محدود المعنى كالاصطلاح الانجليزى . على أننى مع هذا اعتقد ان تصور « الفكر » على النمط الذى امضى فيه وليد التقدم الشعبوى العام ، وليس خاصاً بتقدم العقل الانجليزى وحده ، ولم يتمخض عنه الزمان الا فى العصر الذى أورخ فيه . وهو عصر كان اخص مافيه من صور الارتقاء تبادل المفكرات بين الشعوب ، بعد أن كسرت الامم قيود الاستقلال بمنتجاتها العقلية .

نقد تحيز فى عقل النابغة « توماس كارليل » ذلك التصور العميق الذى حدى به الى الاعتقاد بأن هنالك كائنات عقلية روحياً مختبئاً وراء الحركات العالميه الظاهرة . ذلك لان « كارليل » كان أول من غنى من علماء الانجليز يبحث البواعث العقلية التى انتجت ذلك التغير البين الذى نشهده فى اوروبا الحديثة . هو أول من خص كلمة « فكر » Thought بمعنى خاص بها ، هو نفس المعنى الذى نخصها به فى مبحثنا هذا ، وجعل « الفكر » موضوع دراسة خاصة للذين أتوا من بعده من الباحثين . هو الذى حدد « الفكر » واوسع من دائرة البحث فيه ، ففتح للعقول اوجها من التأمل فى حقيقة الفكر . ولكنه مع هذا خلقه خلقاً جديداً ، فأخرج منه قوة شعر بها كل انسان ، وورضع له اصطلاحاً لن تبلغ اللغات الى وضع ما يدانيه ضبطاً وتحقيقاً . لا يوجد فى كل اللغات الاوروبية اصطلاح كالاصطلاح الانجليزى الذى وضعه « كارليل » يتضمن الفكرة فى السبب والنتيجة معا ، ويجمع بين

الاجزاء والسكل المثالى . وهو مع هذا اصطلاح لا يلزمنا العكوف على نظرية
موضوعة أو مذهب شائع ؛ اذ أن ذلك الاصطلاح يفسح للمفكرين الذين
تختلف نظراتهم كل الاختلاف مجال النظر فى حقيقته من غير أن يفقد
كل منهم شيئاً من استقلال فكرته .



الباعثان الاولان على الارتقاء العقلى - الغرض من الكتاب - القرن التاسع عشر وما تم فيه - أسلوب المعرفة - وحدة المعرفة - البحث وراء الحقيقة الاسلوب العلمى بدأ به غاليليو وحدده باكون - المحلل أساليب البحث - الفرق الظاهرى بين العلم والشعر - العلم والحياة اكثر ترابطا مما يظن - ما فعل القرن التاسع عشر للمثليات - ادراك المصالح والحاجات البشرية من طريق أعمق من المأخذ به - الاصطلاحات المختلفة للتعبير عن وحدة المعرفة تحديد الفكر - عصر الدرس الانسيكوبيدى - تناسى وحدة المعرفة تدرجا محاضرات عن الانسيكوبيدية فى المانيا - الانسيكوبيديات لم تتم ما قصد منها - الفرنسيويون أساتذة العلم فى أوائل القرن التاسع عشر - الانتقاض فى المانيا ضد الغيبيات : الميتافيز - الاصلاح فى علم الآداب المدرسة - تفوق المانيا فى دراسة الحياة الفكرية - الانتقال من الطريقة الغيبية الى الطريقة التاريخية - هربرت سبنسر - لودز وعالمه الصغير Microcosm ، ويعنى به الانسان - حياة البشر العقلية - للأساليب العلمية حياة تنقضى

* *

فى الحياة الانسانية باعثن ساعدا على تقدم النوع البشرى من الوجهة العقلية . وغالب ما ظهر هذان الباعثن بمظهر التضاد فى طريقة عملهما وتأثيرهما . غير أن الحقيقة ان احدهما لن يستطيع أن يحدث من حدث بالغ الاثر ، قبل أن يمده الباعث الآخر بقوته ، ويزكيه بعنصره . أما الباعثن فأنتشار المعرفة من جهة ، وتكثفها من جهة أخرى . فالحيرة الفكرية وحاجات الحياة العملية ، والتجارب اليومية الواقعة بين ساعة وأخرى ، كلها عوامل تبعث على اتساع دائرة المعارف الانسانية واستيعاب موادها وعناصرها . على ان نمأ المعرفة وتشعب أطرافها ليصبح معدوم الجدوى ان لم تنبيه لمشاعر لخطورة شأنه . ولا يغيب عنا ان لمطالبي المعرفة وضروراتها من لخطر والشأن ، مالا يستيعاب المعرفة ذاتها . مثلنا فى ذلك كمثل من يريد

ان يستكشف اقلها ما . اذ كلما كانت النواحي اتى نريد استكشافها اكبر مساحة وأفرط سعة ، كلما زدنا بحثنا عن المواضع اتى تساعدنا على أن نبصر اكثر مانستطيع من مناظر ذلك الاقليم التى تمتد الى مرمى النظر ، أماما وخلفا . غير اننا مهما نذرنا بالحيلة وأهتدينا بالحذر ، فغالب ماتكون المناظر التى تقع تحت حسنا خداعة مضلة . ذلك لانها تلزمنا غالباً أن نرجع بانظر كره ما استكشفنا من النواحي أننا فأننا ؛ اذ نعطينا ؛ كلما نقدمنا الى الامام ، صورة اكثر وضوحاً عن متعرجاتها ومفاوزها ؛ وعن مواضع ما تحوى من الاشياء والاشباح . فى حين أنها لا تلزمنا ذلك وحده . بل تبسط مع هذا لا نظارنا البقاع التى لم نستكشفها بعد . ومن ثم توحى اليها ، وتلقى فى روعنا ، ما يجعلنا نضرب باقدامنا الى الامام ، مسوقين برغبة الوصول الى استكشافات أخرى ، بما تزين لنا من أمل ، وما تهيب لنا من بواعث ، تحملنا على أن نقدم فى مخاطرنا مأخوذين بمزجيات الرجاء للتحقق مما نبصر أمامنا ابصار غشاوة وكلال ، قائسين كل هذا على تجارب الماضى ، مدفوعين اليه بما تخلق قوتنا التصورية ، وما يبدع الخيال . والطبيعة الانسانية فى تلك الحال ، حتى ان نجحنا فى النزول الى بسائط الارض ومضينا فى بحثنا الاستكشافى على أدق نط ، ان تحررنا من الفسكات الثابتة فى عقولنا نبوتنا أوليا . تلك الفسكات التى تكون قد طبعها فى عقولنا النظرات السطحية التى ألقيناها على ما وقع تحت حسنا بادية ذى بدء . بيد انها فكريات اكثر ماتسوقنا الى طريق الضلال .

اما تكثف المعرفة ، وان شئت فقل تركها ، فجاز ان ينقلب الى نواحي مثالية من المعرفة . والتاريخ ينفخنا بأمثال كثيرة من خطى التقدم الانسانى . فطالما مر على الانسان قرون استجمع فيها اسوأ ماتستجمع

العقول ، وأضل ما نبت الأفكار والافهام . ولكن لتتبعها عصور للتشقيف
العقل لم يلحق بها من أمثال الماضي مثال ، أو ليمرر بعدها من موات
العقول ، وجذب الفكر ، استكشاف حديث ، أو اختراع رائع . ولقد
• صدت المذاهب الخداعه والخيالات البعيدة عن الواقع تقدم المعرفة ،
وقعدت بهمة العاملين طويلا . في حين أن هذه الخيالات الخادعة لاتنزع
عن عالم الفكر عادة الا بعد عناء طويل ، وجهود معنتة . كذلك فتحت
الآمال في وجه الانسان ابواباً للبحث ومهدت له سبيل الدخول الى
نواحي من المعرفة لم يألفها من قبل ، وقادته الى سماء من العلم ، لم يبلغها
الانسان الا ليجد أن المعرفة الانسانية قد تكشفت حول حقيقه بعينها ،
أو مضت ضاربة في المثالية الى حد الخيال . غير أنه تمر ازمان في التاريخ
يلوح لنا فيها أن تلك الثمار اليانعة ، والمنتجات الطريفة ، قد مضى بها
النسيان ، وذهب بها الاغفال ، وتردت في ناحية من اليأس الناتج عن
الجهل ، أو غشاها من مغشيات اقنوط ، ما يلقى من روعنا خطأ أنها ذهبت
ذهاباً لا عود بعده .

ليس من شأننا في هذا الموطن أن نبحث ان كان الفكر في القرن
التاسع عشر قد تعاقبت عليه صور من تلك الطرائق المتباينة . بل نكتفي
هنا بالقول بان جهود الفكر خلال القرن التاسع عشر في كلا الاتجاهين ،
اتجاه نشر المعرفة واستجماع أسبابها ، واتجاه تكشفها في بورة مثالية ،
كانت عظيمة ، ظاهرة الاثر ، بينة النتائج . أما في الاتجاه الاول فقد فاقت
كل مثيلاتها مما ترويه بطون الكتب وصفحات التاريخ . في حين أنها
في الاتجاه الثاني ، ان كانت لم تبلغ حد المثالية الاغريقية في عصر
« بركليز » - Periclean age - ولم تبرز النهضة العلمية في ايطاليا

رونقا وبهاء ، ولم تفت من حيث الاثر والقيمة مستكشفات القرنين
اسادس عشر والسابع عشر فى فرنسا وانجلترا ، فانها قد أبرزت فى صورة
من المصطلحات اللغوية أوجها من النظر وأساليب من البحث أقرب الى النفع
المباشر للانسانيه رحماً ، وأبعث على نشر المعرفة أثراً ؛ وكونت تصورا
خاصاً تحيز فى العقول والافهام عما يعنى من امكان وحدة المعرفة العامة .
مند زمان ليس ببعيد صرفت كلمة « حق » أو « حقيقة » Truth

لتدل على الغاية من المعرفة ، وعلى ماهيتها ، لا على الطريقة المثلى والسبيل
القيمة التى تتبع لاستيعاب المعرفة فحسب . « الحقيقة » ، ولا شئ غير
الحقيقة « ذلك هو المبدأ الذى تعلق بأهدابه رأى السائد كقاعدة لاستيعاب
المعرفة . اذ كان المعتقد العام أن الحق كله ليس بشئ سوى توحيد المعرفة
أينما وجدت ، وحينما اتفق أن تكون .

أما الآن فانى اعتقد أن الباحثين من العلماء والفلاسفة معاً ، لقانعون
بأن حب الحقيقة ، اذ يدل دلالة صحيحة على نزعة العقل الى البحث ، الا
أنه غير كاف لتحديد الاساليب التى تتبع للوصول الى المعرفة أو الى
غاياتها العامة .

« ماهى الحقيقة » - هذا سؤال لم يعثر له العقل على جواب حتى الآن .
يدل ذلك على أن الانسان لم يعثر بعد على دستور محكم يتخذ به هادياً
مرشداً للبحث وراء الحقيقة .

وانه ليكون من أبعث الاشياء على الحزن والاسى ، بل انه ليكون
طامة كبرى ، ومصيبة محتاحه ، لو ذهبت الفكرات الادبية الخاصة بالبحث
وراء الحقيقة ؛ وصحة المعتقد ، من نفوس العمال الناشطين الى العمل ، ومن
وجدان المفكرين المتوثبين الى البحث . غير أن علمنا بمستخرجات طبيعتنا

الادبية ، كحب الخير والصلاح ، وحس الجمال والشعر ، لا يبدأ في الوجود بمجرد تعريفها ، ولا ينمو بتحديداتها . ونحن في سنى طفولتنا ، حيث نعدم القدرة على التفكير ، ان كنا نستوعب معانى تلك الحاسات الادبية من لغتنا ، فانها مع ذلك لمعان قلما تزداد في نفوسنا غوراً وثباتاً من طريق الفوارق المنطقية التى نستوعبها ، والتي تخضع لها عقولنا في مستقبل حياتنا . ذلك لان المنطق لن يتناول الماهية بأثره ، في حين أنه كثيراً ما يهدم من مقدماته الرئيسة في نفوسنا .

لقد تبدل العلم الحديث من متجه النظر للبحث وراء الحقيقة ، بأسلوب قيم للبحث والتتقيب . وذلك الأسلوب لا يدرس الدرس الوافر الا بالاختبار والنصر على المشاهدة ، كما انه لا يستوعب بمجرد الوصف النظري . كان أول ما وضع ذلك الأسلوب في مؤلفات أولاء من ابطال العلم الحديث منذ عصر « غاليليو » - Galileo و « نيوتن » والعصور التالية . أولئك الذين استمدوا من موحيات ذلك الأسلوب فنجحوا كل نجاح . ومن كتاباتهم وتواليهم استمد الفلاسفة منذ عصر « باكون » Bacon و « كومت » Comte و « ميل » Mill تلك المهيئات التى توصلوا بها الى انتزاع الأسلوب العمى الحديث من فوضى الماضى . ان الكلام فى هذه الاساليب سوف يستغرق الشطر الاعظم فى عنايتنا . على أننا سنقتصر القول الآن على أن الغرض الذى ترمى اليه المباحث العلمية هو اطلاق حرية الباحث فى اختيار أية من الاساليب العلمية التى تلذ له . فان الباحث العلمى البحث لا يعرف الى أية نهاية سوف تقوده خطواته . انه يكتفى بأن يكون على علم بما بين يديه . ان العلم الحديث يحدد الأسلوب ويكتشف الوسيلة . ولكنه لا يعين الغرض ولا انهيائه . انه قائم على علم العدد والاستنتاج .

وعلى الجمل قائم على الاساليب الرياضية . وتقدم العلم موقف على ادخال اسلوب التفكير الرياضى فى الموضوعات اتى تلوح على ظاهرها بعيدة عن علم الرياضة ، كما أنه مشروط على انتشار الاساليب الرياضية وتنمية القوة المصورة . واديك اصطلاحاً « تام » Exact و « يقينى » Positive فافهما يتخذان فى لغات القارة واللغة الانجليزية على الاخص ، ايدلا على تلك الاساليب وعلى طريقة تطبيقها . ولقد يظهر لاي من أولئك الذين لم يعنوا أنفسهم بالاشتراك فى الانتاج العلمى ، ان الباحث باتباعه أسلوباً محدوداً غير قابل للتحويل الا فى مفصلاته دون طبيعته ، أو بالجنوح الى نواحي من البحث تسوق الى شعب من المعرفة ، ان كانت محدودة بينة ، الا أنها تذهب فى شعبها الى لانهاية ولا آخر ، يفقد يوماً بعد يوم تلك الفكرات العليا فى العلم ، ويعدم صفة التركيز والتكشيف العلمى ، وعلى الجملة يخسر كل النزعات المثالية التى توحد المعرفة : تلك الاشياء التى يلوح ان تفوق المعرفة وتقدمها موقوفان عليها . هذا أمر محتوم ان يطرا على فكر كل من عكف على الاراء والاساليب القتيعة . أما اليوم ، فى عهد الرق الحديث ، فان وحدة المعرفة ، ونظامها وألفها ، وكما لها وتناسق صورها الظاهرة ، والحقيقة والجمال ، ليست بأشياء تقع فى سبيل الباحث العلمى ليتخذها قواعد مباشرة لبحثه . وليس لها فى نظره من قيمة أكثر من قيمة تلك الاسرار الخفية السحرية التى كانت تنسبها بعض مدارس الفلسفة للاعداد * . على أننا ان كنا لا نزال نعيش مأخوذين بفننة تلك

* فيثاغورس ومدرسته أول من نسب للعدد خواص سرية فى
عصور الفلسفة اليونانية .

الاشياء وأمثالها ؛ وعلى أننا نعمل جهد ما نستطيع لنخلص من مؤثراتها النفسية ، فاننا مع هذا يجب ان نسلم بأن مافى طبيعة الاشياء من صبغة الشعر والفلسفة والدين ، قد أخذت تفقد شيئاً فشيئاً تأثيرها فى عالم العلم . انها لا ترسم للبحث العلمى طريقاً . ولا تفرض عليه أسلوباً من أساليبها . لقد أصبح العلم بلا حاجة لان يستمد منها العون والمساعدة . ولكننا يجب ان نتساءل هل خسر الطرفان باثبتات صلتها شيئاً ما ؟ أما العلم فى مستطاعه أن يفخر بأنه قد بلغ بذلك الانفصال درجة من الكمال الشكى ، ونال قسطاً من التقدم والارتقاء ، عدمها طوال القرون الاولى .

ليس ذلك وحده ما وصل اليه العلم من هذه الطريق . فانه قد ربح شيئاً لم يعده خلال العصور القديمة والقرون الوسطى . ذلك الربح ينحصر فيما وقع من وجوه الارتباط بين العلم وبين أوجه الحياة العملية . ان تلك الروح الرياضية التى حكمت بأمرها فى أساليب العلم وقواعده ، أصبحت كذلك الحاكمة بأمرها فى التجارة والتبادل والصناعة ، وهى آخذة اليوم فى التغفل الى المهن كالطب والقانون والادارة . لان هذه الوظائف الاجتماعية قد أصبحت فى العصر الحديث ذات آصرة وصلة بالاعداد والمقاييس والموازن ، وبامتدادات الزمان والمكان ، حيث أضحت من مقتضيات وجودها أن تلجأ الى أساليب من الاحصاء والنسبة . وهى أشياء لن نستطيع بغيرها أن نحقق مخادعات الاقتناع الذاتى أو نزعات الافراد الفكرية ، من طريق عملى . كذلك لا يجب علينا أن نفعل عن أن المسائل المطلوب من العلم حلها ، قد زادت وتكثرت بنسبة عظيمة . فان كل تقدم يقع فى العلم ، ان أعطانا قوة جديدة تسود بها على ظاهرة من الظواهر فى عالم الحياة ، فان كل نياً يقع فى عالم الحياة يخلق لنا أوجهاً جديدة من

البحث العلمي تطالبنا الضرورة بفض مشكلاتها . فان العلاقة بين العلم والحياة قد زادت خلال القرن التاسع عشر ، ترابطا واتصالا . وهذا أمر ابلغ ما كان أثراً في الموازنة بين الخطوات التي خطتها الاساليب العلمية الحديثة . فان هذه الاساليب ان تركت لتمضي حرة من مؤثرات الحياة فيها ، لادت الى أوجه من التخصص لانهاية لها . لان من خصائص المسائل العملية انها ان تستقل عما يحيط بها . على العكس من الاختبارات العلمية . ذلك لان المسائل العملية في الحقيقة تلزمننا ضرورة الانتباه الى كثير من الظروف والحالات المحيطة بنا . وان تلقى بنظرنا دائماً على الحياة ، لا في مفرداتها ، بل في مجموعها ، وأن ننظر في حاجاتها ومقتضياتها .

اذا فخر القرن التاسع عشر بأنه وضع أساليب ايجابية تامة احتذاء العلم ، واتخذت في الحياة مناراً وهدياً ، وانه ضاعف من قيمة العلم ، وزاد من خطر الحياة ، فما زال أمامنا سؤال لانجد لأنفسنا عذراً في اغفاله . تساءل ألم ينتج القرن التاسع عشر من نتاج يحفظ علي تلك المثاليات القديمة التي ناء عليها الزمان شيئاً من قيمتها : مثاليات الحقيقة والجمال والحكمة ، تلك التي أخذت في القرون الأولى على أنها أساس الوحدة في العلم والحياة ، وعلى أنها مبدأ الألفة المنبثة في تضاعيفها ؟ وماذا جرى على الفلسفة ، والفن ، والدين ؟ وهي التي أمدتها المثالية الفكرية بكل عنايتها ، وحملتها عبء القوامة على كثير في فروع المعرفة والعمليات ، أن ينفرط عقد وحدتها ، وتنصددع حزماتها ، وحصرت فيها كل الامل لتنجي النوع البشري من خطر التطوح الى انكار أوجه الترابط وضروب التعاون ، الواقعة بين كل لحاجات الانسانية ؟

اما اذا كان قد ثبت في يقني ومعتقدى ان القرن التاسع عشر لم يكشف

من تصور أبعد خطراً من التصور القديم أزاء الوحدة التي تربط بين الحاجات الإنسانية ، وأزاء الحياة الكامنة في الانسان ، وفي النوع البشري كله ، لما فكرت ساعة واحدة في ان أمضى في اتمام مؤلفي هذا . لان غايي منه تمنحصر في ان أكشف عن أوجه التعاون التي ربطت بين كثير من العوامل والبواعث خلال القرن التاسع عشر ، في عالمي الفكر والعمل . أريد ان أظهر به حقيقة ذلك الاعتقاد الحق الذي يسوقنا الى التيقن من ان كل الجهود العقلية لا بد في ان تتحد معا لتنتج الملكات المثالية التي خص بها النوع الانساني ، وتقوم حفيظة عليها . أود أن أثبت فيه ان ذلك الكنز المقدس لا يحتفظ بمافيهِ ولا يزيد مستخزنه ، مجهود فرد بعينه ، أو منجمه بذاته يتجه فيه الفكر ، بل ان بقاءه ونماءه مقصوران علي ان تتعاون الافراد والأمم في حياتهم الشعبية العامة المشتركة ، على ان يصلوا به الى تلك الغاية .

لقد دخل على اللغات خلال القرن التاسع عشر عدة من المصطلحات نحتها واضعو المذاهب الفلسفية لتدل على تلك الوحدة الكائنية في صميم الحياة الكامنة للنوع البشري . استعمل « هيجل » كلمة Geist أي فكر . واستعمل « كونت » كلمة « Humanity » أي انسانية . واستعمل « لودز » كلمة Microcosm أي العالم الأصغر ، ويعني به الانسان . واستعمل « هربرت سبنسر » كلمة « Social organism » أي الكائن الاجتماعي . استعمل كل منهم اصطلاحاً مختلفاً . ولكننا في الحقيقة لم تكن الا أوجهاً مختلفة لموضوع واحد . وانه لمن أخطر مظاهر الفكر ان نلاحظ كيف ان مدارس المثالية الكبرى في ألمانيا ، ومدرسة العلم اليقيني في فرنسا ، ومدرسة النشوء ، العقلي والطبعي ، في إنجلترا . على الرغم مما يلوح فيها من روح التحليل ، لا من روح التوحيد ، قد اشترك جماعها مع الانقلابات الاجتماعية ، مشفوعة بالثورة الفرنسية

العظمى ، وبتخصيص العلم ، في الاحتفاظ بوحدة الحياة الانسانية ، والقوامة على حاجاتهم ومطالبها .



الراجح عندي أن كلمة « فكر » Thought قابلة لان تطبق أوسع تطبيق ، وفيها من الخصائص ما يجعلها تدل على أية حقيقة أو تقييم عقلي قد تحويه تلك الأغراض المتحدة ، وتلك المحاولات التي تنبئها آمال العصر الحديث . على أني أعتقد مع هذا ان وضع تاريخ لتلك الفكرة ، يكون بمثابة وضع تعريف جامع مانع للفكر في مجموعه .

ولقد صرف كثير من الجهد خلال القرن التاسع عشر في سبيل الوصول الى غرض يشابه غرضي هذا : لذلك أرى أن تناول تلك الناحية الخاصة من الادب الحديث ببحث موجز ، لا يخلو من فائدة ونفع .

لست أشك في أننا قد قضينا عصر البحث الانسيكلوبيدي في تحري المعرفة . لقد غشى العصر الانسيكلوبيدي الفكر قرنا كاملا ، من أواسط القرن الثامن عشر ، الى أواسط القرن التاسع عشر ، أي من عام ١٧٥٠ الى عام ١٨٥٠ .

علي ان الفكرة في ترتيب المعرفة على النمط الانسيكلوبيدي ترجع الى زمان أبعد من هذا . ترجع الى الزمان الذي عقب تمخض الفكر عن الاسلوب العلمي الحديث .

ان اللورد « با كون » لاول واضع لتلك الاسلوب . غير أنه عجز كما عجز أكبر عقل أنسيكلوبيدي ابنه العصر الحديث ، وهو عقل « ليننتز » Leibniz عن أن يبلغ الغاية من تحقيق الغرض الاسمي من تلك الفكرة ؛ وظل تحقيقه مبقياً لنبوغ « ديدرو » Diderot وعبقريته

« دالمبير » D'Alembert في فرنسا ، خلال القرن الثامن عشر ، فخرجنا
ومن تبعها من العلماء ، الى حيز الواقع ، مارسه « باكون » في كتابه
« النظام الحديث » Novum Organum في حيز النظر ، واستجمعا كل
المعرفة ، التي ذاعت لعهدهما منذ أن خلص العلم من مؤثرات اللاهوت ،
ووضعاها في كتاب واحد محبوكه اطرافه ، متواصلة حلقاته .

لقد كان للانسيكلوبيديين من عملهم غرضان : الاول نشر المعرفة :
والثاني تحقيق أن المعرفة الانسانية عبارة عن كل لا تنفصل اجزاؤه : أما
الغرض الاول ، وهو الناحية العملية ، فقد صادف نجاحا . وأما الغرض
الثاني ، وهو الناحية الجوهرية من فلسفتهم ، فقد أطرح وتنوسى تدرجا
على مر السنين .

لقد أشار « ديدرو » و« دالمبير » الى وحدة الفكر والمعرفة : الاول
فيما كتب تصميا للانسيكلوبيدية — موسوعة المعارف Prospectus
والثاني في المقدمة Discours preliminaire ، وأشار اليها في تمهيد
موسوعة « ارش » Ersch « وجروبر » Gruber العظمى ، وكذلك في
مقالة « كوليردج » المشهورة في علم الاسلوب التي كتبها « لانسيكلوبيدية العالمية »
Encyclopedie Metropolitana — غير أن نتيجة كل هذا الجهد
قد أظهرت ماخفى على لورد « باكون » ، من أن تقسيم المعرفة تقسيما
تراعى فيه قاعدة ما من قواعد المنطق ، أو يستهدى فيه بالخصائص
التاريخية التي لازمت بدايات كل فرع من فروع المعرفة الانسانية ، لن
يحفظ في النهاية بوحدة المعرفة ، ولن يسلم الى بقائها كما واحدا . فان العمل
في سبيل تقدم العلم والمعرفة ان أصبح مفرقا على عدة علوم مختلفة ، ووكل
به الى كثير من الباحثين يستقل كل منهم بحجة منه ، فانه لن يظل محصورا

في دائرة محبوبك طرفها ، بل يخرج الى سلم حازموني يزداد اتساعا كلما ازداد ارتفاعا ، ويفترق عن أصله الذي يرتكز عليه تدريجا كلما امتعت حلقاته في التزايد . ذلك هو الاثر الذي تتركه في نفوسنا نظرة تأمل نلقيها على المجالات التي خلفها « ارش » « وجروبر » غير كاملة ، وهوبذاته الاثر الذي تخلفه في يقيننا معرفتنا أن مؤلفات عمرنا بما فيها من الفوائد العظيمة وقربهان متناول العامة ، قد قضت القضاء الاخير على تلك المقدمات الفلسفية والمحاورات التمهيدية ، التي كانت تصدر بها الكتب في الماضي ، لا شيء الا ليتحفظ من طريقها المؤلفون بظل من الوحدة والاسلوب ، والتي رضى مؤلفوها بأن تكون معاجم للراجعة لاغير . ولقد دلت طريقة صوغ المعرفة على النمط الانسيكلوبيدي ، وهي ليست الا تنفيذاً لنظرية لورد « باكون » ، على أن انتشار العلم وتطبيقه عملياً ، شيان لابد من أن يسوقنا الى تحليل المعرفة والفكر ، لا الى توحيدهما . ومما لامرية فيه ان قيام اعتقاد مشابه لهذا الاعتقاد في يقين علماء ألمانيا كان السبب الذي حدى بالجامعات الالمانية الى القاء المحاضرات التي كانت تلقى في الانسيكلوبيدي . ولقد ذاع القاء تلك المحاضرات وعم تدريسها في فجر القرن التاسع عشر ، عند ما خضع التعليم لتأثير « كانت » Kant « وفيخته » Fichte « وشليرميخر » Schleiermacher . فأحدث ذلك عصرأجديداً سادت فيه فكرة أن وحدة المعرفة وكلها ، وتعميمها ، امور يمكن أن يبلغ اليها من طريق توحيد طرق الدرس وتنظيمها على نموذج واحد . ذلك العصر هو آخر عهد الفلسفة بالقبض على خناق كل فروع المعرفة ، وبصدها بالبحث العلمي عن الانبعاث في طريقه القيمة . تسودت الفلسفة هنالك عند ما أيدها الحوادث السياسية ، وزكتها الاغراض المثالية الخيالية ، وعلاوتها روح كريهة من التضحية الذاتية ، ممسوسة بشعور قيم

أوحى الى أبناء ألمانيا أن عليهم لا متهم واجبا واحدا القيام به مشروط على تعاونهم.
وكان أظهر ما في ذلك الشعور انضواء فلاسفة ألمانيا وباحثيها الاعلام تحت
لوائه، والاذعان لموحياته.

وكان لا انتشار تلك الروح أثر عظيم في خلق صورة من التعاون المتبادل ،
لا يداينها خطراً ومكانة ، الا تزكيتها لفكرة وحدة المعرفة ، فهدت لكثير
من المذاهب الفلسفية ، التي خيل للناس أن فيها من الفوائد أكثر مما في
استطاعتها أن تنتج ، سبيل الانتشار والذوبان . هنالك ألقى في روع الناس أن
أسفار الانسيكلو بيديّة شيء أكبر خطراً من تلك الصدفة الفارغة والهيكل
الاجوف الذي رآه فيها أبناء العصر التالي . ظن ان في تلك الاسفار قدرة
على نشر المعرفة ، والاحتفاظ بها كما حياً ، فائضاً بالوحدة والقوة . هذه
الصورة الفكرية ، التي سوف تستغرق قسطاً كبيراً من انتباهنا ، قد محيت
الآن . فانك لن تقع في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، على ماهية
المعرفة تركزت في قاعدة فلسفية ، أكثر من وقوعك على وحدة الفكر
وتماسك أطرافه ، في مقالات متفرقة مرتبة على حروف الهجاء ، وليس فيها
من معنى الوحدة ، الا ضمها معاً بين دفقي كتاب واحد . لقد كان الغرض
من تلك المعجمات الانسيكلو بيديّة غرضاً عملياً بحتاً . كان الغرض منها وضع
وسيلة قريبة الفائدة لنشر المعرفة ، لم يراع فيها تقسيم الفلسفة الا تقسيماً شكلياً ،
ولم تنتج من فائدة الا في أضيق دوائر البحث والاسترشاد .

ان عصر الدرس على الطريقة الانسيكلو بيديّة ، وذلك العصر
القصير الذي نمت فيه « الشكليات الفلسفية » Philosophical Formalism
لعصر ان يلوحان لنا كأنهما تابعا للماضي . غير أن « الرغبة » في توحيد
المعرفة وجمعها في بورة واحدة ، وتحقيق الصلة الكائنة بين الفكر وبين

الارتقاء ، قد بلغت غاية لم تبلغ اليها خلال العصور الاولى . فلا ضخامة
المعاجم الشوهاء ، ولا اتخاذ القواعد النظرية الجوفاء على أهماتامة كاملة ،
لترضى اليوم ذلك المعتقد العميق الذى تعمل كل النواتج العقلية على انمائه
ومده بمهيمات الحياة : اعتقاد ان الانتاج العقلى كائن حى متحيز الشخصية
لانهاية لتنوع صورته ، ولا غاية لاختلاف مظاهره وأشكاله . ولقد ثبت
فى روع الباحثين أن بعث الفكرات الفردية من خمودها ، واستحداث
صور الحياة والتغير ، ضرورة أوليه ، كضرورة العكوف على اسلوب ما ،
او انتحال مذهب بعينه ، او اتباع نظام بذاته . ولقد سهلت هذه الفكرة
خلال الخمسين عاما الفارطة سبل التبادل العقلى بين الامم ، وهونت على
الكتابيين تدوين أوجه النشوء التى وقعت فى تاريخ فروع العلم والمعرفة .
ولقد أمدت عوامل كثيرة ذلك الغرض الأولى بمهيمات النماء .
فالفرنسيون الذين كانوا فى أول ذلك العهد اساندة العلم ، بدأوا اجتياز السبيل
بتأسيس عدة من المجلات الدورية تعنى كل منها بفرع من فروع العلم المختلفة
تنميه ، وتتعهد ، وتقوم عليه حفيظة ، وعلى بقاء كفيلة . ومن ثم تبعهم
الالمانيون . ومن بعدهم الانجليز . ولقد زاد تبادُل الفكرات العلمية بين
الناس ذيوغا ، منذ أن تأسست « جماعة تقدم العلوم البريطانية » سنة
١٨٣١ . وكان « أوكن » Oken قد أسس جماعات شبيهة بالجماعة البريطانية
قبل ذلك بعشر سنوات فى المانيا . غير أنه كان لالمانيا اكبر الاثر فى اصدار
الموسوعات السنوية الخاصة بتقدم العلوم ، حيث كانت تنتقد المباحث
العالمية ، من غير اعتبار لمصادرهما الوطنية ، ثم تقسم وتبويب على قاعدة
وضع فروع العلم المختلفة كل منها فى حيزه الخلق به فى كفاءات العقل
الانسانى .

ولقد قلم في النصف الاول من القرن التاسع عشر في المانيا حركة انتفاض
ضد الطريقة التي كانت تعالج بها الموضوعات العلمية علي قاعدة ميتافيزية -
غيبية - تلك الطريقة التي بالغ في اتباعها مدرستا « شيلنج » و « هيغل »
ولقد ساعد اقتباس أساليب الاختبار والمشاهدة على الأسس التي دعمها
الفرنسيون والانجليز ، كما عاون تأسيس المعامل الكيمية ، والمرصد
الفلكية ، والسياحات الطويلة التي انفقها الباحثون في سبيل الاستكشاف ،
وتطبيق القواعد العلمية في الانتاج الصناعي ؛ على استجماع كثير من
مواد المعرفة العامة .

ولقد اخذ الباحثون منذ زمان مضى يفقدون الثقة بكل المحاولات
التي أريد بها تركيز المعرفة وتوحيدها ، حتى في مجال الاستنتاج العقلي التام .
الحرر عن نزعات الغيب وما وراء الطبيعة . فكانت نتيجة ذلك ، وعلى
الاخص في المانيا ، أن منتجات كثير من العلوم أصبحت تدفن بين
دفعات المجلات الدورية ، وفي المذكرات التي اعتادت اجماعات العلمية
حفظها في مكاتبها . أما المتون العلمية فأخذ يكتبها مؤلفون من الطبقة
الثانية ، او ينقلها عن الانجليزية والفرنسوية مترجمون ، احتدوا في نقلها
طرقاً عتيقة بالية . ولقد اختصت بضعة عقول فياضة كبيرة يدي تلك الروح
التي خمرت البحث العلمي في أواسط القرن التاسع عشر . وتلك عقول كبيرة
ظلت غير معروفة خلال ذلك العصر ، شأن العقول التي تظهر في أزمان
لائلائها . على ان ثلاثة العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ، قد كفلت
تغيير ذلك كله . فان وسائل الاتصال بين الباحثين ، التي أدلينا بالكلام
فيها من قبل ، جعلت انبتات اسباب التواصل في العلم امراً مستحيلاً .
فدعت الضرورة اذ ذاك الى التبدل من النظام القديم الذي ظل متبعافى برامج

التعليم الادبي في معاهد العلم ، بأخر أكثر انطباقاً على الاساليب الحديثة .
وتطوع كثير من اصحاب العقول الفذة اكتابة متون صحيحة في العلوم
التي كانوا يعالجونها . فأدى ذلك الامر الى اصلاح كثير من وجوه الخلل
الذي ساد تلقين العلم في المعاهد العليا . وفي الوقت ذاته ، وبعد مضي خمسين
عاماً انفقها الباحثون في البحث الاختباري واستجماع مواد المعرفة الاولى ،
شعر العلماء بضرورة النظر في المبادئ الاولى التي بنى عليها التفكير العلمي ،
نظرة نقدية وتحليل . عثر الباحثون اذ ذاك على روح خاصة من الفلسفة ، لا
من الغيبيات وما وراء الطبيعة ، ممزوجة بحدود العلم الصحيح منذ مجدها .
فانك في العلوم المجردة الصحيحة ، وعلى الاخص في الرياضيات ، تجد ان
التقدم الحقيقي مرهون على استكشاف اساليب بسيطة أولية ، وطرق لمعالجة
تلك العلوم تامة النفع قريبة التساؤل ، كما انه موقوف على المكشف عن
المبادئ التي تحقق وحدتها ، والمشاهد التي تضمن تعميمها .

كل هذا ليس بشئ سوى علائم الحياة الحديثة ، ودلائل التقدم
والارتقاء النشوي . أما السبب الكامن ونتيجته ، وتغير اساليب التفكير
التي ظلت محتفية وراء تلك المشاهد الظاهرة المحسوسة ، فسوف تكون موضع
عنايتنا من البحث فيما بعد . فان تلك الاساليب والكشف عنها وبحثها ،
هي في الواقع الغرض من كتابي هذا .

ان الرغبة الصحيحة في البحث عن البواطن الخفية الكامنة في عالم
الفكر ، كانت أكثر ظهوراً في تلك الامة التي أخذت في العصر الحديث
قياد التفكير الفلسفي في أوروبا ، وأعني بها المانيا . يدلك على ذلك المؤلفات
التاريخية الضخمة التي خصها كبار المؤلفين في المانيا بتتبع درجات الرقي
والنماء اللذين مضى فيهما العلم الحديث . والظاهر أن البحث التاريخي قد

حل في ألمانيا - في أواخر القرن التاسع عشر - محل الاكسباب على التأمل الغيبي - الميتافيزي . وقد تقع علي شيء من الانتقال من الاسلوب المنطقي الى الاسلوب التاريخي في منتجات العقل الانجليزي خلال القرن التاسع عشر . كان « دافيد هيوم » David Hume . قوام ذلك التغير ، اذ بدأ بدراسه المسائل الغيبية - الميتافيزية - التي وقع عليها في كتابات « لوك » Locke « وبركلي » Berkeley ومنها تطرق الى درس معضلات الاخلاق والسياسة والاقتصاد ، وانتهى من ذلك بان وهب نفسه الى دراسة التاريخ . ولم يكديختتم « هيوم » صفحته ، حتى دأبت المباحث التاريخية في انجلترا ، ذبوع المؤلفات الغيبية واللاهوتية في فجر حياته . أما العوامل التي أدت الى الانتقال من الاكسباب على المباحث الغيبية الى الاساليب التاريخية في ألمانيا ، فمشابهة لتلك التي أدت الى ذلك في انجلترا خلال القرن التاسع عشر .

وبينما كانت المباحث التاريخية آخذة بزمام العقول في ألمانيا ، بل قضت القضاء كله على « الفلسفة النظامية » Systematic Philosophy أي الفلسفة ذات القواعد المرسومة ، انتجت انجلترا لأول عهدها في تاريخ التفكير العقلي مذهباً فلسفياً . ذلك المذهب الذي ابرزه العلامة الكبير « هررت سبنسر » H. SPencer ، وحاول أن يثبت فيه أن الغرض من الفلسفة « توحيد المعرفة » على أن من الحقائق الخطيرة في تاريخ الفكر تلك الحقيقة التي سوف نصرف في سبيلها شطراً عظيماً من عنايتنا . ان مبدأ « توحيد المعرفة » الذي بثه « سبنسر » في ذلك المذهب ، مبدأ تاريخي ، وهو في قوامه عبارة عن طريقة من النماء التدريجي ، تعرف الآن باسم « النشوء » Evolution . يكون هذا المذهب في مجموعة فكرة مناقضة

للفكرة التي بنىها « هرمان لودز » Hermann Lotze. — في آخر مذهب فلسفي من المذاهب العظمى التي ظهرت في المانيا. فكل المذاهب النشوية اذ تقضى بان وحدة الاشياء تاريخية صرفة ، وأن هذه الوحدة يجب أن يعود الانسان في بحثها الى أصل اولى عنه نشأت ، اذا بك تجد أن « لودز » قد حاول أن يثبت أن الحقيقة تنحصر في الاعتقاد بان لوحدة الاشياء وجود ثابت ، وأنها مبدأ موجود في كل الاشياء المفردة . وليست كما يقول النشوء ، عبارة عن حلقة تربط بين الموجودات بمقتضى الزمان والمكان كان الغرض من مذهب « لودز » الوصول الى جواب ، اذا تساءلت كيف يستحضر العقل الانساني لنفسه وحدة كائنهية كوحدة الموجودات ؟ ومن طريق أية من الأفكار التي ينبثق منها الفكر الانساني نستطيع أن نصل الى تلك الوحدة ؟ وبأية من الكلمات التي تتضمنها اللغات الانسانية يمكننا أن نعبر عنها ؟

ان كلا من مذهب « سبنسر » في النشوء ، ومذهب « لودز » في « العالم الاصغر » Microcosmus. ويعنى به الانسان ، يرمى الى اثبات « وحدة الفكر » ، واحداث ذلك التصور الذي يسوق الى الاعتقاد بان الاشياء تحتفظ ببقائها ، وان الحوادث الكونية تقع ، خضوعا لعلاقة واقعة بينهما يمكن ادراكها ، وأن وجهة النظر الديني والعلمي في هذه الحياة يمكن التوفيق بينهما . ولكنك تلتقي أن « سبنسر » اذ يمتنع مقتنعا بأن الوحدة الكائنية وراء عالم الظواهر لا يمكن معرفتها ، وينصرف الى دراسة الطريقة التي تحدث بها ظاهرات الكون ، وتنشأ بها الموجودات ، والافصاح عن حقائقها ، تجد أن « لودز » يعتبر أن ذلك القسم ، الذي صرف اليه « سبنسر » كل همه ، ليس من مجموع الفلسفة الا مقدمة وتهيداً يسلم الى

حل « المعضلة الحقيقية ».

يرى « لودز » أن أية طريقة من طرائق النشوء والنما ليست سوى الثوب الظاهري التي تلبسه المادة الحقيقية : أى عبارة عن اسلوب ميكانيكي « آلى » ينتج به شيء آخر آمن قيمة وأبعد خطراً.

ويعتقد « لودز » في تأثير تلك الآلية - الميكانيكية - تأثيراً عاماً شاملاً. غير أنه يحتم في الوقت ذاته ضرورة العثور على المادة ذاتها، والحصول على فكرة في الغاية أو الحد الذي يمكن ان يبلغ اليه الانسان من هذه المنظمات المتتابعة المتواصلة ، او تلك الوسائل الآلية المنظومة التسلسل ، كما أنه يحض على العثور على النتيجة التي قد يتسنى البلوغ اليها . ويقول « لودز » اننا اذا عرفنا الوسيلة الآلية التي يتم بتأثيرها غرض من الاغراض أو فعل من الافعال ، استطعنا ان نقدر الظاهرات الطبيعية ونزنها رياضياً . غير أننا لكي نستوعبها عقلياً ونفهم طبيعتها ، نحتاج الى ضروب آخر من المعرفة تنصرف الى تقدير قيمة الفعل او الغرض الذي تنتهى اليه ، والنتيجة التي نجنحها من تقديرنا للظاهرات . يقصد بذلك « لودز » أن مقدرتنا على تتبع الحالات الميكانيكية التي تبني عليها دقة سير الساعة شيء ، وأن تحديد الوقت الذي تعينه لنا وضبطه شيء آخر . على أن حب الاستطلاع قد يقود طفلاً الى الايناس بالشيء الاول . في حين أن الشيء الآخر ، يتوقف على تقديرنا لحاجات الحياة وأغراضها ، وعلى عظم ما نحمل من مسؤوليات الواجب .

عند ما شرع « لودز » في كتابة مؤلفه « العالم الاصغر » Microcosmus . نبه الاذهان الى كتابين آخرين يمت موضوعهما لموضوعه باصرة ونسب . عمد الكتابان كلاهما ، على اختلاف في النهج والطريقة ، الى ايجاد فكرة

تامة يدركها العقل عن عالم عظيم من الظواهر المبددة ، يسلم بك اذا
 ما نظرت فيه الى عالم من الحقائق . أما الكتاب الاول فمن نواتج القرن
 الثامن عشر . قصر البحث فيه على التاريخ وعلى نواة الترابط الكائن
 بين أوجه النشوء الانساني . لقد أعطى « هردر » Herder . ان لم يكن
 قد ابتكر ، نوعاً من الخطورة والشأن خص به اصطلاح « الانسانية »
 Humanity قصد به وحدة تربط بين كل الحاجات الانسانية ، سواء أفي نشوئها
 الاجتماعي أم التاريخي . وتلك فكرة مضت مستبدة بنواتج العقل الالمانى
 منذ عصر « ليبنتز » Leibnitz . وأما الكتاب الثانى فكان مؤلفه
 « اسكندر فون همبولد » A. von Humboldt الذى لم تغادره فكرة الوحدة
 الحاكمة فى كل الموجودات خلال كل أدوار حياته التى ملئت بمختلف
 صور الجهد ، فانفقها حيناً مكباً على درس الطبيعة درساً عميقاً ، وحيناً آخر
 مستغرقاً فى تقييم النتائج التى تترتب على أساليب البحث العلمى الحديثة ،
 وحاز فى كلتا الناحيتين مكانة وشأناً . ولقد استعان « فون همبولد » بمتانة
 من الاسلوب وسلاقة من التعبير ، امتزج فيهما الشعر بالعلم ، ليخرج من قلمه
 فى صورة كتاب ألفه فى أصيل حياته ، كشف به لانظار قارئيه ودارسيه عن
 صورة من صور الطبيعة العظمى ، كما تخيلها عقله الكبير من قم العلم
 المشرفة على اللانهاية ، وكما رآتها عيناه من مرتفعات « شمبورازو » .
 فى وسط تلك الصورة التى صورت بها الطبيعة ، وفى جوف التغيرات
 التى تنتاب الكون ، أين يوجد « الكون الاصغر » ؟ Microcosmus
 طرأ هذا السؤال بالضرورة على عقل « لودز » فهو لذلك يقول - « ليس
 هو ذلك الكون الاعظم الذى يزيد ان نصفه مرة أخرى على النموذج
 الذى عرفناه من قبل فى ألمانيا . فان صور هذه الدنيا العظيمة اذ تنزل الى

أعماق سحبة من الإدراك العام ، فهي لذلك ترجعنا الى نفوسنا تارة أخرى
لنعاد التساؤل : أية قيمة لحياة الانسان والانسانية ، بما فيهما من الخصائص
الخالدة ، وبما في تاريخهما من أوجه التغير وسط هذه الطبيعة في مجموعها ؟ على
أن « لودز » بعد أن جمع كل ما يمكن أن يكون جواباً لهذا السؤال ، عاد
الى الاعتراف بأنه لم يصل الى شيء الا الى تجديد الفكرة التي بدأها « هرذر »
في كتابه « فلسفة التاريخ » . على أن كلا من كتاب « هرذر » وكتاب
« لودز » تابع لذلك العصر الذي أثرت فيه الفلسفة والشعر على العلم
والتاريخ أبين الأثر .

وقد يظن الكثيرون أنه من المستحيل ، أو على الأقل من المتعذر
بحكم الزمان ، أن يجمع الانسان بين منتجات العلم والتاريخ الحديث ،
ليخرج منهما بذلك الغرض الذي ندب اليه الفلاسفة وامتدحه الشعراء ، أو
أن يدلف بقدمه في مجاهل ذلك التيه الذي تمثله الظاهرات الطبيعية المحسوسة
والحوادث الكونية ، ليصل الى ما يخفى وراءها من الوحدة والعظمة .
ذلك لأنهم بينما يسمون بوجود قوة شاملة تامة تخفى وراء عالم الظواهر
تسليماً مطلقاً ، اذا بهم يقصونها كما فعل « سبنسر » الى العالم « المجهول »
لأراني في هذا الموطن محتاجاً لأن امضى في نقد تلك الاعتبارات
التي ساقتهم الى وجهة من النظر بالغة اقصى حد من الاعتدال والاذعان
للغيب . ولهذا أريد أن أقصر بحى فيهم على طريقة محدودة ، وقد أكون
غير مسبوق بها ، تتناول النظر في صحة معتقدتهم الذي يلقي في روعهم أن
استيعاب الظاهرات وحادثات الكون استيعاباً صحيحاً ، لن يأتي الا من
طريق النظر فيها من جهة تواصل أسبابها ، ومن طريق نتائجها الكلية .
واذا كان ثمة في عالم الطبيعة والحياة العقلية من شيء يحق لنا أن نسلم بأن

فيه وحدة ، وانه مجهول غير مرئي . فهو بلا ريبه الفكر الانساني : بما فيه من شعب ومقارن ، وبما له من منتجات ومظاهر . فان محاولة يراد بها تتبع أصله الذي عنه نشأ في متروكات المدينيات التي قامت خلال العصور الاولى ، أو محاولة يقصد بها صده عن الغاية التي يسير نحوها درجة بعد درجة ، كلتاهما محاولة بالغة أقصى حدود الاستعصاء . وغاية ما نستطيع أن نقول اننا أكثر علماً وأعمق معرفة بعصرنا الذي نعيش فيه وبمختلف صور الادب ، وضروب الانتاج العقلي ، التي شهدنا نشوؤها خلاله . فقد استطاع الفلكيون أن يصلوا الى معرفة مقدار أكثر المدارات اتساعاً وابعدها مسافة ، بجزء ضئيل من مدار سيار وقع تحت حسهم وتناولوه بالدرس والاستقصاء . وأقرب مثال على ذلك استكشاف « بيازي » *Piazzi* للسيار « سيريز » *Ceres* في « باليرمو » في أول ليلة من عام ١٨٠١ . كذلك تجد أن « تشريح المقارنة » *Comparative Anatomy* قد علمنا كيف نستطيع أن نقف من بضعة بقايا مستحجرة على تركيب كائن عضوي ، وعلى مفصلات تكوينية برمتها . على أن غايتي من ضرب هذه الامثال ، أن أطبق قاعدتها الاولى على جزء صغير من نواحي الارتقاء العقلي ، هيء لي أن أكون على علم بها ، وشعرت بما كان لها من أثر في نفسي . فان تتبعنا ، على وجه من الدقة والضبط ، ذلك الشطر الصغير من الفكر الاوروبي ، قد يكون باباً نلج منه الى حيث نستكشف صوراً أبعد دقة وأكثر صحة . في حين أن هذه تصبح وسائل نتخذها سبيلاً للحصول على أفكار أثمن من سابقتها قيمة ، وأتم نفعاً وأشد ضبطاً ، في الكشف عن خفيات الحدود القصية المشعبة الخاصة بالحياة العقلية للنوع الانساني .

لا تنحصر هذه الحياة في استجماع ضروب المعرفة التي استجمعت

خلال القرن التاسع عشر ، ولا في نتائج البحث العلمي التي تضمها جدران
المكتاب والمتاحف العامة ، ولا في مدارس التلقين الاولى ولا معاهد العلم
العليا ، ولا في الاصلاحات الاجتماعية ولا ترقية أساليب التربية . وهي أقل
ما تكون ظهوراً في النظم السياسية والاقتصادية . ان هذه جماعها الأشياء
خارجية يمكن ان توصف أو تصور ، شأنها في ذلك كشأن ظاهرات الطبيعة
المحسوسة . أما حياة النوع الانساني العقلية فمحسوسة في أساليب التأمل
الخفية التي أمكن بها استيعاب تلك الأشياء الظاهرة ، والتي استطاع بها
الانسان أن يضيف الى مبدعات الطبيعة ، خلقاً جديداً خاصاً به . وبها
تسنى له ان يغير من وجه الارض ويبدل من نظامها ، وان يخص كائنات
الطبيعة بمعان مثالية لاتتاح لغيره . وفي سبيل هذه الغاية يعنت الانسان
نفسه لكي يستكشف أساليب لا يلبث أن يطبقها حتى يعتمد الى تغييرها ،
وفي سبيلها يحسد وراء نتائج واغراض سرعان ما يرفضها ويقتضيها ، ومن
أجلها يخترع نظريات قصيرة العمر وشبكة البقاء ، وفي الواقع ، يبنى ويهدم ،
يشيد ويقوض ، يستعين بالبناء والهدم ، وبالتشيد والتقويض ، على ابراز
مختلف نظم الاجتماع ، وصور الفن ، ومنتجات العلم . وتلك النظم والصور
والمنتجات يخلفها الانسان ، لا كشيء الا كآثار تدل على ما بدل من
جهد وما أنفق من نشاط . والانقراض التي يخلفها وراءه لا تلبث أن تترك
وتهمل كأشياء لا قيمة لها ، الا قيمة محدودة بالزمان ، مقرونة بصفة الانتقال
والتغير . بيد ان هذه الانقراض ليست الاجسراً يصل بين الماضي والمستقبل ،
وهي بذاتها المادة التي يتكون منها هيكل الحياة العقلية ، التي تنصرف في
سبيلها عناية البحث والاستقصاء . وبقدر ما يكون لنا من حظ في بناء ذلك
الجسر ، أي في تقويض القائم والاشادة على انقاضه ، وبقدر ما يكون لنا من

علم بالوسائل التي عمد اليها الفكر لبلوغ هذه الغاية ، وبقدر ما رأينا وعلمنا من أوجه نشوء العظام من البدايات والصغائر ، يكون مقدار علمنا بشئ من الحياة العقلية ، التي تظل مخفية ، وتمضي مستورة وراء هذه الظواهر المشاهدة . لهذا اعتقد ان دراسة ما وقع تحت حسنا ومشاهدتنا ، هي الطريق الوحيدة التي تمهد لنا ان نبلغ بنظرة عميقة فيما ابدع العقل من منتجات ، أى في حياة البشر الروحية . وسوف نرى عما قريب كيف ان كل عصر سواء أمن عصور العلم ، أم من عصور الفلسفة ، لا يبدأ الا بفروض وخيالات . ولا يمتضي في البقاء الا جرياً على أساليب معينة ، وكيف ان بعض الاساليب الفكرية الخاصة قد تصبح عامة مأخوذاً بها . وكيف ان وجهات من النظر الفردى قد يتقبلها الفكر فتنشر وتذيع ؟ غير اننا في عادة أن تلك الفروض النظرية لا يمتضي عليها جيل أو جيلان على الاكثر ، حتى تأخذ العقول في وزنها وتقيمها والفحص عن نصيبها في الصحة ومطابقة الواقع . ونجد أن نصيب الاساليب الفكرية من النقل لا يقل عن نصيب النظريات منه . فيطراً على عالم الفكر عقيب ذلك أساليب حديثة تملك زمامه وتكتسح أمامها طرق التفكير العتيقة ، التي خيل للعقول زماناً أنها أكثر الاشياء ملاءمة للطبيعة ، وأبعدها انطباقاً على مطالب الحياة ، هنالك تجد أن نظام الجمعية الانسانية . وهيكـل العلم وصور المعرفة ، وطرق تطبيق الفنون على الضرورات البشرية ، قد انتابها التغير خضوعاً لمبادئ مستحدثة ، تكفل حاجات النوع بتمتضي الارتقاء والنشوء . ولا ريب في أنه لا يقوى على البقاء من المبدعات القديمة الا النزر اليسير . فتجد أنه لا يبقى من تلك الاشياء التي ندعوها قوانين العلم ، الا قانون واحد أو اثنين ، ولا يعود الى آلة الطباعة الا بضعة كتب ليعاد نشرها ، ولا يبقى الا عدد ضئيل من نواتج الفن ، مع قصيدة

أو اثنتين من قصائد الشعر . مثل هذا سوف يخلف القرن التاسع عشر ،
كبير اثنا الحى الذى جيناه من سنيه الاولى . فى حين أن بقية المنتجات
سوف تضم الى مجموعة ما يدونه التاريخ من وقائع العصر . ولن يصبح لها
فى الحياة من خطر أكثر من خطر الذكري ، اذ تمسك عن أن ترسم لنا
طريقا قويا أو تنير لنا سبيل الحياة فى عهدنا الجديد . ولن تمضى بضعة
قرون على تلك المنتجات ، الا لينظر اليها اعقابنا كما ننظر نحن الى آثار
المدنيات الشرقية القديمة . كما ننظر الى ابى الهول القابع فى الصحراء التى تكتنف
أهرامات مصر ، متأملين فى تلك الوسائل التى تم بها تشييدها ، وفى مقدار
ما أنفق فى سبيلها من جهود ومشقات ، وفى الفكرة التى قامت فى رؤوس
الذين وضعوا تصميمها وأقاموها حيث هى عنوانا على العصور ، ومثالا
للدهور .



الحاجة إلى اختيار طريق ما - لا يوجد في القرن التاسع عشر من حادث يألف من حوله الفكر العام - هل تاريخ الفكر هو تاريخ الفلسفة - الفلسفة تنظر إلى الماضي - مسائلنا - التأمل - تعريف الفلسفة وتحديداتها - أقسام الكتاب : الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر - ليس في العلم ولا في الفلسفة مما يشمل معنى الفكر - الفكر مخبوء في الأدب والفن - تأثير جوته ووارد سووت - الفكر المضطرب - إحصاءه في شيء واحد : التفكير الديني - العلم تام - الفوائد الذاتية - الفلسفة حلقه وصل بين العلم والدين - للفكر مظاهر ثلاثة - المظهر العلمي : والمظهر الفلسفي : والمظهر الفردي - صعوبة التفريق بين المظاهر الثلاثة - الفكر الفرسي ارتكز على العلم - حالة الفلسفة في إنجلترا - فوست - رواية جوته - عنوان الفكر في القرن التاسع عشر - عصر اضطراب تسببه الثورة - الفكر في القرن التاسع عشر ابتكار طبيعي من جهة ، ورجعي من جهة أخرى - مدرسة بيرونه - النظريات الثورية الفكر باعتبارها قوة تشيدية بنائية - داروين - سبنسر - الفلسفة الخيالية - التقدم والبحث في الفكرة العلمية - مذهب هيغل



ان أكبر مزايا الفن أنه يقيم في ذهن الانسان ، بنظرة واحدة صورة كاملة عن الغرض الذي يرمى اليه ، وبذلك يحدث تأثيراً تاماً في العقل ، دفعة واحدة . على ان التأمل العميق ان كشف لنا عن الكيفية التي يتألف بها الكل بالتتام مجموع أجزائه ، وعرفنا كيف يعبر كل عنصر من العناصر المؤلفة للمجموع عن الفكرة الاصلية التي توحد بين الاجزاء ، فان الاثر الذي يتركه المجموع يظل السبيل الاوحد الذي نستطيع ان نفهم به كل جزء من الاجزاء قائماً بمفرده . ولقد نكر على الادب ، وعلى العلم ، وعلى التاريخ ، ان في مستطاع كل منها أن يصور الغرض الذي يرمى اليه في مجموعه ، بحيث يحدث في ذهن الباحث منذ البدء تصوراً تاماً ، أو يزوده بفكرة

كاملة الاجزاء . على أننا نمت الى الباحث أن يماشينا متتبعا خطواننا الى
القمة العليا التي لا بد من أن نبلغ اليها بتصعيدنا في ذلك المرتقى الوعر . ان
كثيرا من الطرق تسلم الى تلك القمة . على أننا غالب ما نخطئ في اختيار
السبيل المثلى والصراط المستقيم . وقد نبلغ بالقارىء حد الانهالك والكلال ،
قبل أن نقطع نصف الطريق ، وربما نحدث في نفسه احساسات قد تصده
عن التأمل في مجموع ما يترامى تحت قدميه من المناظر وهو في مرتقا . أما
ماندرن نحن في معنى « المجموع » فليس الا جملة ما تكونه أجزاؤه . في
حين أن الفنان لا يدرك المجموع الا بفكرة ان الاجزاء ليست الا كسورا
يتكون منها كل مؤلف النواحي .

طالما أعترض سبيلي كثير من أمثال هذه الصعاب وأنا مكب على التدبر
في أمر الفكر خلال القرن التاسع عشر ، على الرغم مما حوطت به بحثي
من الحدود ، وما ألزمت نفسي من العكوف على دائرة من البحث لا أعدها
لقد اعتقدت اعتقاداً تاماً ، بعد ما بلوت من البحث والتجارب ، أن
عالم الفكر اشبه بدائرة يحدها محيط يترامى في اتساعه ترامي اللانهاية . واشد
معاينات من تعب ومشاق حتى وقعت على نقطة ابدأ منها السير واختط منها
طريقاً يقودني الى تلك القمة ، على أمل أن اشرف منها على منظر للمجموع
يمكنني من اكتمانه ، والوقوف على ماهيته .

* *

خصت بعض عصور التاريخ بقيام حركات فاصلة ، وحوادث عظيمة
امتصت كل القوى العاملة النشيطة ، واندجت فيها كل العناصر العقلية
والتخيلية ، فتجد أن تلك الحركات قد مضت مستبدة بأمرها ، اما تخضع
كل القوى المنبعثة في عصر ما للعمل في سبيل ابراز غرض معين ، أو

تثبيت فكرة بناتها ، واما ان تلفيها وقد جرفت امامها كل شيء الى جو من التنازع والجلاد ، يوجه بكل ما فيه من مختلف الصور والقوى الى تزكية الحادث الرئيسي الذي تلتف من حوله قوة الفكر . العناصر .

والامثال التي يرويها التاريخ كثيرة . منها تلك القرون الطويلة التي يقص أخبارها تاريخ اليهودية ، والعصور الاولى التي اينعت فيها الكنيسة النصرانية ، والزمان الذي نقشته فيه عن المدنية ساطة البوابات ، وزمان الاصلاح البروتستانتي ، وعهد الثورة الفرنسية .

فاذا عدنا الى دراسة « الفكر » في مثل هذه العصور ، لما أعوزنا البحث عن مركز نركز عليه أو نقطة نبدأ منها ، لان من الهين ان نعثر على سيارها الذريبي * Vortex-Atom - الذي يحرك بحركته كل القوى الكائنة ، ويبعث العبقرية في مكنها ، ويوقظ الكفآت والمواهب العقلية من رقدتها ، ففي عصر كعصر الاصلاح البروتستانتي مثلاً ، يمكننا أن نتكلم في السياسيات الخاصة به ، وصور الدين التي انبتتها ، والفلسفة والادب ولفن ، وكل المنتجات العقلية التي انتجتها . وأن نمضي في بحثنا موقنين باننا لا بد من أن تقع على كل وجه من وجوه التقدم العام وعلى كل الخطى الارتقائية التي خطاها العصر ، وان نقف على كل الفكريات التي ذاعت فيه ، سواء أأرضت معتقدنا أم ناقضته . وانه لمن الظاهر الجلي أن العصر الذي أورخ فيه لا يتضمن حادثاً من تلك الحوادث التي تمتص القوى وتبسط سلطاتها المطلق على عالم الفكر .

* السيار الذريبي في الطبيعيات هو الجوهر الفرد السابح في الاثير ويقصد بذلك المؤلف ان الحوادث العظمى في عالم الفكر أشبه الاشياء بالسيار الذريبي الذي يهز بحركته كل القوى المتصلة به « معرب »

على أنه ان كان في القرن التاسع عشر من قوة وحدت بين المؤثرات التي
انبثت فيه، فانها لم تظهر طافية على وجه الحياة، بل ظلت دفينية في أعماق
الطبيعة البشرية. والمعضلة التي أخذنا على عاتقنا ان نبليغ الى حلها، والغرض
الذي قضينا مجاهدين في سبيل الوصول اليه، ان يظهر سافرا غير مقنع. اذن
نعتقد أنه غرض يمكن أن يدرك من طريق الاستنتاج وحده، فلا نستطيع
له تحديداً ولا حصراً. هذا نوقن بأن الغرض الذي من أجله عشنا وشقينا
وجاهدنا لم يظهر لمشاعرنا تاماً بيننا، كما ظهر للذين عاشوا خلال عصر
الاصلاح البروتستانتي، أو عصر الثورة الفرنسية. والا لما سقنا بانفسنا،
لولا هذا الامر، الى فلسفة «الاشاعرية» و«المجهول» ولما انتهى القرن
التاسع عشر مختتماً بالتساؤل: «أمن قيمة هذه الحياة»؟

وانت تعثر من جهة أخرى، اذا ما قلبت صفحات التاريخ، على
عصور سادت فيها روح الهدوء، فانصرف فيها الناس الى متابعة بعضهم
بعضاً في السير في سبيل بعينها، واطمأنوا الى ميول عامة أحدثتها أفكار
واحدة، واخلدوا الى الاخذ بعادات خاصة في التفكير، وانتهجوا في البحث
أساليب فيها من الفطرة الأولى أثر السذاجة وتطريعات البساطة والاعتدال،
وعمدوا الى تطبيق بضعة سنن لم يعدوها الى غيرها، فظلوا عليها كفين،
ومضوا بها قانعين. كان هذا طابع الزمان الذي تقدم الثورة الفرنسية،
أي الشطر الاعظم من القرن الثامن عشر. حتى لقد أصبح من الهين علينا
أن نصف طابع ذلك القرن، فصرنا عليه اسم القرن الفلسفي، قرن التنوير
العقلي. - Aufklärung. - وان شئت فقل «قرن فولتير». ذلك، في حين
أننا لا نستطيع ان نصرّف على عصرنا اسماً مشابهاً لهذا الاسم، ولا ان
نخصه بنعت كهذا النعت. فانك ان تقع فيه على «اسم علم» يحمل معه شهادة

بالاثر الذى ترك صاحبه مطبوعاً فى جبين كل ما احتك به من حاجات الحياة العديدة التى وقعت تحت سلطانه.

لقد ادعى بعض الباحثين أن تاريخ الفكر هو بذاته تاريخ الفلسفة، على اعتبار ان مذاهب الفلسفة ونظرياتها المختلفة تتضمن فى مجملها الابانة عن السبيل التى تمشت فيها الأفكار خلال عصر ما من العصور. وعلى ذلك يكون الكلام فى تاريخ الفكر فى القرن التاسع عشر هو بذاته الكلام فى تاريخ الفلسفة خلاله .

لقد انتج القرن التاسع عشر كثيراً من صور الفلسفة ومذاهبها المختلفة. غير انك تجد ان تلك المذاهب ، على الرغم من اختلافها وتباينها، من مثالية « فيخته » المتطرفة ، الى مادية « بخر » Buchner الالحادية ، لن تجعلنا نشعر بأنهم محيطة بعالم الفكر كل الاحاطة . ان أكبر دليل على هذا ان العصر الذى اجذب فيه العقل الانجليزى من الفلسفة ، وهو أربعة عقود الاولى من القرن التاسع عشر ، قد اخصب هنالك فى انتاج نزعة أدبية حديثة، وفى ابراز تصور خاص فى الفن ، وفتح فى كلا الاتجاهين، اتجاه الادب واتجاه الفن ، ينبوعاً فائضاً بمنتجات الحياة العقلية . فى حين انك لن تقع فى المذاهب الفلسفية على أثر تناولها بالوصف والتقدير . كذلك تجد ان فرنسا قد اجدت فى « التأمل الفلسفى » خلال عصر « العودة الى الملكية » Restoration غير أنها أحدثت اذذاك عصرأ ذهبياً من عصور الادب، وأمدت كل أوروبا باضواء العلم التى اشعت من « باريس » خلال الثلث الاول من القرن التاسع عشر. ولعلنا نرى تاريخ الفلسفة يذكر « جوته » ومع هذا فان مؤلفاته تتضمن على الأرجح أعمق صور الفكر التى انبتتها العصور الحديثة . ثم عد الى فرنسا ثانية . تجد، أن المذهب الفلسفى الوحيد الذى أبرزه العقل الفرنسوى طوال القرن التاسع

عشر، هو مذهب « كونت » في « الفلسفة اليقينية » ، غير أنه لم يترك الا أثراً ضئيلاً فيها . ومن ذا الذي يجراً على القول بأن هذا المذهب يعكس على العالم من صور الفكر الفرنسي ، ما يعكس عصر « فولتير » ؛ أو عصر « مونتسكيو » مثلاً ؟ واليك « هيجل » نفسه ، فانه لذلك الباحث الذي عمد الى تتبع آثار العقل الانساني في مذاهب الفلسفة . علي أنه قد جهر بعد الجهد والعناء بأن الفلسفة آخر ثمار المدنية ، وأن أية فكرة من الفكرات التي تمضى متحركة في العقول خلال أي عصر من العصور ، لا تظهر لابسة الثوب المذهبي ، الا وكان هذا عنواناً على زوالها ، ودليلاً على انقضاء حياتها .

يدللك هذا على أن الفلسفة لا تنظر الا الى الماضي . انها تجمل ما فصلته الازمان ، ومن ثم تناقش وتنتقد . ولاكنها لن تضع المستقبل صورة مرسومة . على أن ما في هذه النظرية من حق ، قد يتناوله الشك وتحف به الريب . غير أننا لانود أن نمضى في الكلام فيها الآن ، لاننا سوف نعود اليها بعد . بل نكتفي هنا بأن نقول بأن مانعني من اصطلاح « الفكر » لا يمكن أن يتفق وما يعنى من اصطلاح الفلسفة . ولذا تقضى بأن تاريخ الفلسفة خلال القرن التاسع عشر ، أمر يختلف تمام الاختلاف عن تاريخ الفكر فيه . على أن هنالك موضعاً قد تحل فيه كلمة « الفلسفة » محل كلمة الفكر . غير أنه موضع يقرب فيه معنى « الفلسفة » من المعنى المدرك من « الفكر » ولا يقرب فيه معنى « الفكر » من المعنى المدرك من « الفلسفة » . وعلى هذه القاعدة كتب « هيويل » — Whewell — « فلسفة العلوم الاستقرائية » Philosophy of the Inductive Sciences — وجعل الغاية مما كتب أن يبحث عن أساليب الفكر التي تتخذ ، عن قصد أو عن غير قصد ، سبيلاً الى التفكير

أو البحث العلمى ، فتؤدى الى تقدم العلم وارتقائه .
على أننا قد نفع على محاولات شبيهة بهذه فى التجارة والسياسة والحكومات
والدين والادب على وجه عام . على أن الفلسفة فى كل هذه الحالات لا تدل على معنى
أكثر من أنها طريقة خاصة للتفكير والاستنتاج يستعان بها على حاجات الحياة ،
عملية كانت أم عقلية . وليس هذا هو المعنى الذى يدرك من الفلسفة فى الاستعمال
المتفق عليه . أنها لتدل على شىء أعمق من ذلك . فلا هى أخذت على أنها أسلوب
مرسوم ، ولا على أنها طريقة عقلية حرة تبرز بها الأفكار والتأملات . بل أخذت
للدلالة على نظريات محددة ، تفسر بها ظاهرات الكون بالغنى من حقارة الشأن ،
أو عظم الخطر ما بلغت . ومن هنا لا نشك فى أن الفلسفة تكون شطرا
عظيما من اشطر الفكر خلال القرن التاسع عشر ، وقد تكون أشد ما انتج
الفكر اخذا بالروح ، وصرفا للذهن فى سبيل التأمل والاستبصار . على أنها
فى الخين ذاته أكثر ما انتج الفكر خضوعا لبواعث التغيير ، وأوسعها
للمناقشة والنقد مجالا . ومع هذا فانا لا نشك فى أن الأفكار الخفية
والاستنتاجات العميقة الغور البعيدة المتناول ، هى الأساس الذى قام عليه
هيكل النواتج العقلية والفنية ، والمستحدثات العلمية ، التى شيد نواحيها
القرن التاسع عشر

وعلى هذا يظهر لكل باحث استعمر فى البحث فى نزعة الفكر
الاوروبى خلال القرن التاسع عشر ، ان مباحثه لا بد من أن تنقسم
الى شطرين عظيمين كلاهما يتناول ناحية خاصة . ففى الشطر الاول
يجب عليه أن يعتبر الفكر عبارة عن مجرد وسيلة تسلم الى غاية ما ، أو
كأسلوب يتخذ ذريعة للوصول الى غرض معين ، سواء أ كان نظريا أم عمليا .
ولا يؤدى الفكر فى هذه الحال من معنى أكثر من أنه نوع من الاستنتاج

العقلى استخدم فى سبيل البحث عن المعرفة ، أو عن طريقة تطبق بها المعارف الانسانية . ولما كانت كل الاستنتاجات العقلية لا تبدأ الا بفروض أو أوجه من النظر ندعوها المقدمات ، أو المبادئ أو القضايا الضرورية ، ومن هذه الاوليات تولد أساليب معينة ، فان هذا الشطر من البحث ينقسم بدوره الى قسمين . يتناول القسم الاول تقرير المبادئ . ويختص القسم الثانى بالبحث فى الاساليب التى يمضى الاستنتاج العقلى ، نظريا كان أم عمليا ، خاضعا لمؤثراتها . غير أن الفكر ليس يقتصر أثره فى الوجود على زيادة معرفتنا بالاشياء الكائنة ، وتطبيق المعرفة على الاغراض العملية . فأنه ان اقتصر على هذا وحده لتفرق بددا ومضى ناقصاً غير تام ، بل غالب ما أوحى إلينا بوجوده من التناقض تغشى عقولنا حيناً بعد حين . دليلك على هذا أن الذين يهبون أنفسهم للمباحث العميقة المستفيضة ، أو الى العمليات ، غالب ما يأنسون من أنفسهم نزعة الى التغفل فى أوجه من النظر فى حقيقة الاشياء تتسع أمامهم دائرتها كلما اعنوا فى البحث ، فى حين أن حاجتهم من البحث لم تكن لتبلغ بهم الى تلك الحدود القصية التى يسوقون بانفسهم فى غمراتها بلا حاجة اليها . فقد يظهر للباحث مثلاً أن الاساليب التى يتخذها لبحثه سبيلاً قد أصبحت معدومة الجدوى والنفع ان اراد الوصول بها الى غرض عملى يضعه نصب عينيه ، فيساق الى الشك فى تلك المبادئ التى مضى عليها كقناصف عمره ، من غير أن تدخله الريب يوماً واحداً فى صحة ما تقوم عليه من الحقائق ، وفيما ينتظر أن تنتج من الفوائد . وقد يصادف باحث آخر نجاحاً باحثائه اسلوباً خاصاً فى البحث ، وبذلك تتجدد رغبته فى تطبيق ذلك الاسلوب على موضوعات كانت تعالج من قبله على طريقة مخالفة لطريقته ؛ وربما ينهض بذلك الاسلوب الى درجة

يصبح معها قاعدة عامة من قواعد الفكر . وقد يتفق باحث ثالث أن يأخذه الشغف بتتبع المعرفة في فرعين أو ثلاثة من فروعها تلوح على ظاهرها غير مرتبطة برباط ما . غير أن هذه الفروع اذ تتقارب في ذهن الباحث لا يلبث أن يأنس من نفسه ، لتقاربها في ذهنه وضعا ، رغبة في أن يوحد بينها ويؤلف بين ما تعارض من وجوهها . وقد يباغ باحث رابع بعد زمان ما الى حد من الملل مما عكف عليه من مباحث لم تؤد به الا الى نواحي من العلم محدودة الفائدة ، فيسعى الى التخلص مما عكف عليه طوال عمره ليفوز بناحية أخرى من البحث العلمى أوسع مدى وأكثر فائدة وأثبت على الامل والرجاء . على أننا ان سلمنا بأن الجمل أو التفريط قد يعوق السواد الاعظم من الناس ، الذين لم ينفقوا قواهم حتى في سبيل التنازع للبقاء ، عن أن يكونوا وجهاً من النظر يتعدى الدائرة الضيقة التي يلزمونها ، واذا سلمنا بأن الكثيرين منا انما يعيشون ، كالاطفال ، قانعين ، موقنين بأن حاجات النوع الانسانى العظمى تدبرها ارادة علوية ان تبلغ اليها عقولنا ، ولن تدركها أفهامنا ، فان في بنى الانسان لعدداً عظيماً من أولئك الذين لا يهدأ لهم روع الا اذا تطلعوا الى شىء أكرم مما بين أيديهم طبيعة ، وأوسع مدى ، وأحسن صفة ، أولئك الذين يعيشون متعطشين للوصول الى مستكن الحكمة الصحيحة ، أو تسوقهم طبيعتهم الثائرة المتوتبة الى البحث وراء القواعد والاغراض الغائية التي يشيد عليها هيكل الكون والحياة .

* *

لقد أفاحت اللغة في نحت كلمة تعبر عن هذه المحاولات على تعدد مظاهرها ، وعلى اختلاف أوجه تطبيقها . وضعت لها كلمة - « التأمل »

Speculation وهي كلمة تدل على ما تتطلب طبيعة هذه الاشياء من جرأة
واقدام ، وما تبعث عليه من التفرير بالنفس . وجدت تلك الاشياء
في كل العصور ، وفي كل الامم ، وفي كل اللغات ، وعلى الجملة حينما كان
الادب بارزاً في صورة من العقل او التخيل ، مصبوباً في قالب من الذر أو
الشعر او الرموز ، معبراً عنه في بعض الاحيان بمصطلحات محدودة ، وفي
البعض الآخر بمجازات غامضة مبهمه . وقد نتصور أن الفلسفة لم تنشأ الا
من طريق تلك الاوليات الغامضة ، حيث شرعت العقول تسلكها في نسق
يراعى فيه اسلوب ما ، أو توحيها فتجعل منها كلا متماسك الاطراف ،
مؤتلف النواحي . وعلى هذا نستطيع أن نعرف الفلسفة بأنها « الانصراف
الى التأمل على أسلوب معين محدود ، للوصول الى وحدة نظامية » . وقد
نقول بأن العلم والفلسفة هما « التفكير الاسلوبى » Methodical Thought .
حين أن كلمة « نظامى » لا تنصرف الا الى صور التفكير الفلسفى العميق
الذى يرمى الى بلوغ الوحدة والكمال .

* *

لقد مضينا حتى الآن فى تدبر الفكر على قاعدة أنه وسيلة تؤدي الى
غايه . أو بالأحرى نستطيع أن نقول أننا مضينا نبحت الفكر فى نزعتة
العلمية . والآن نريد أن نتدرج من ذلك الى بحث الفكر اذ يتخذ الفكر
موضوعاً لتأمله أى كقوة تنعكس على نفسها ، وتنصرف الى معرفة ماهيتها
واصلها ونشأتها وامايسها وقوة ثباتها ، والفحص عن قواها ، مع الانصراف
فى كل ذلك الى الوصول الى حد يتحقق عنده كمالها ووحدها وبقاؤها .
وكل ما فى هذا الشطر العظيم من اشطر الفكر سوف نظويه تحت عنوان
« الفلسفة » . فكما أننا سنخصص القسم الاول من كتابنا « تاريخ الفكر

الاوروبي في القرن التاسع عشر » يبحث الفكرة العالمية ، كذلك سنخصص القسم الثاني منه يبحث الفكرة الفلسفية .

*
* *

لقد نشأ العلم تدرجاً من مجمل ما استجمع من ضروب المعارف المدخولة بالخطأ المسوسة بالفوضى ، وما زال الفكر يعالجها برغبته في الوصول الى الكمال ونزعته الى ترتيب المعارف حسب الكفاءات العقلية ، واستخلاص أوجه النفع منها ، حتى وصل الى ما نعرف منه في العصر الحاضر . كذلك شبت الفلسفة بطريقة مشابهة لهذه ، غير أنها شبت من ناحية الفكرة التأملية ، برغبة وضع تلك الفكرة على نظام يتبع فيه اسلوب ما ، ابتغاء الوصول الى غرض محدد أو غاية معينها . ومع كل هذا فلن يسه العلم ولا الفلسفة ، ولا كلاهما ان اجتماعاً وتمازجاً ، معنى « الفكر » . ولن يشمل معنى العلم ولا معنى الفلسفة ما يقصد من اصطلاح « الفكر » . فان كلا من العلم والفلسفة ، ينطوى تحت ما يعنى من اصطلاح « الفكرة الاسلوبية » المنظومة على قواعد معينة . غير أنه لدينا ناحية الفكر المدعومة الروابط والنظم ، ناحية الفكر المطلقة من الحدود والتعاريف ، تلك التى تستر وراء صور الادب والشعر والخيال والفن . ولن يظهر لتلك الناحية من أثر في عصرنا ، الا في الحياة الفنية أو الأدبية أو الدينية . وهذه الصور ان كانت من الواقع شعاعاً منعكساً على الحياة من اشعة العلم أو نور الفلسفة ، الا أنها ، ككل الاشعة المنعكسة ، لا تتبع مصدر الضوء التى ينبعث عنه وجودها فقط ، بل تتقدمه في الظهور عادة . أنها ليست العتمة التى تعقب النهار ، بل هى فجر المعرفة الذى يتقدم بزوع الشمس . انها الشفق الذى ترامت خيوطه المشعة فى ظلمة الفكر . انها الصدفة التى كمنت فيها جرثومة الفكر التى

تمخض عنها جنين المستقبل ، فيها نشأت بدايات الفن ، وأوليات الفلسفة والعلم .
التي لم يقف العقل على أسرارها ولم يحلم بما سوف يكون من نتائجها .
أنها لتحيط بأبعد أغوار العقل ، حيث هنالك تجد مبعث الفكر وأصله .
كامنا في تضاعيف الفطرة ، وحيث ترجع بين حين وآخر الى تلك الاغوار
السحيقة لتستمد الحياة كلما أعوزتها الحياة ، وتستنزل الوحي ، كلما أعوزها
الوحي ، فيزجها بكل طارف وتليد .

ان يكمل بحث يعني بتاريخ الفكر في القرن التاسع عشر ، أو يبلغ
حدا يرضى الحق ، من غير أن يصرف عناية الاستبصار الى ذلك العالم
الكبير ، عالم الفكر المطلق من الاساليب الموضوعية والانظمة المفروضة ،
ذلك العالم الذي تمثله الآداب والفنون التي تبرز في عصر ما من العصور .
لقد خص الادب والفن في القرن التاسع عشر بقسط من الحياة ،
ونصيب من قوة الابتكار ، وسرعة التغير والانقلاب التابعين ل نزعة
الفكر ، لم ترو عصور التاريخ ما يبرزها شأنًا وخطرا ، الا عصور ثلاث .
عصر سعدت به آئينا في عهد «بركايز» ، وعصر نعمت به إيطاليا ابان «النهضة
العلمية» ، وعصر ازهرت فيه إنجلترا تحت حكم «الصبابات» على ان القرن التاسع
عشر قد خص بقسط من الابتكار الموسيقي لم تبلغ اليه العقول في كل
عصور التاريخ . ففي ذلك الفن وحده ، على ما يقول الثقة وجهابذة اهل
النظر ، يبرز عصرنا بقية العصور ، قوة ابتكار ، ووفرة انتاج . كذلك
تجد في الشعر أن «جوته» و «واردسويرث» قد نهضا بالاذواق الى مستوى
أرق من مستواها الذي ورثته عن القرون الاولى ، وأبدع الفكر الفرنسي
والانجليزي نوعاً مبتكراً من القصص الخيالي . في حين أن تصوير المناظر
الطبيعية ، ذلك الفن الذي خلقه الانجليز ، لم يكن معروفا خلال القرون الاولى .

كل هذه الاشياء ، على الرغم من نشوئها مطلقة غير مقيدة بقانون عامي ولا قاعدة فلسفية ، وفي الغالب خارجة عن سلطان المدارس والمعاهد فانها تشير ، بل تدل ، على طرق جديدة من طرق التصور العقلي ، وتشف عن مجموعة من الأفكار لم يتم نشوؤها ، أو هي أتمت من النشوء الفكري قسماً جزئياً . ان كل هذه النواتج لتتم عن مجهود عقلي عميق ، ان لم يمتصه العلم ولم تسغه الفلسفة بعد ، الا أنه ينطوي ، جرياً على ما حددنا من ذلك التصور الجوهري ، تحت عالم الفكر . ان المعنى المدرك منه قد يكون غامضاً ملفزاً . والتعبير الواضح الجلي الذي سوف ينتج ذلك المجهود في الفلسفة والاستنتاج العقلي ، قد يكون بعيداً غير بين لنا في زماننا هذا . غير أننا مع ذلك لانستطيع أن ننكر أنه كائن موجود . وما هو الا مجموع الفكر غير المحدود . هو تلك الاقباس المنيرة المتناثرة المبددة ، التي لم نستشف بعد بورتها ولم نعرف بعد نقطة ارتكازها . هو تلك الاشياء التي لن نستطيع ان نمر بها ، ونحن نؤرخ في تاريخ الفكر في القرن التاسع ، من غير أن نلقي عليها بنظرة او نخصصها بعناية البحث ، على غموضها .

ليس من الهين ان نعثر على اصطلاح نصرفه على مجموعة الفكر غير الاسلوبى Unmethodical Thought على تشعبها وتجزئها وتفاقم حلقاتها . لن نعثر لها على اصطلاح مكون من كلمة واحدة كاصطلاح العلم أو الفلسفة ، يمكن ان يعبر عن كل ما فيها من معنى ، وما تحوى من نزعة

الى هنا استطعنا أن نبين عما لا يمكن أن يصبح من الفكر الاسلوبى يوماً من الايام . غير اننا مع هذا نشعر بأن ذلك الخيز من الفكر هو الذي يتضمن اعظم شطر من مصالحنا ، واخص ما يحتمك بحميائنا العامة ، وانبل

ما نتطعم اليه في الآمال ، وما نشرئ اليه باعنا قنا في الاماني . ان العلم
ليتمشى في طريق تسلم به شيئا فشيئا ليصبح مسألة احصاء ونسبة ، فيكون
مهنة لا تعنى بغير المعمل وحانوت البيع والمصنع والسوق . وكذلك الفلسفة
فاننا نستشعر فيها كثيرا من رائحة المدرسة وقاعة المحاضرة . وهي فضلا عن
ذلك لتمعن في سبيل التكون على صورة مذهب أو قضايا عامة ، وكثيرا
ما تعنتنا بالتعاريف ، وبالنظر في المجردات . غير انك تجد ان النسبة
والاحصاء والمقاييس ، والتعاريف وتجريد الفكر الصرف ، لتعجز برمتها
عن ان ترضى ، في ساعة هدوء أو فترة نحس فيها بحاجة ماسة من حاجات
الدنيا ، مطالب الحياة التي تقع عليها في الدين . واني لا صرف هنا كلمة
الدين كما هي في أصلها وجوهرها وهي تدل عندى على ذلك الشطر من
الفكر الذى يبرز في مجموعة مؤلفات الادب الخارجة عن مباحث العلم
والفلسفة.

هنالك كلمات يكثر أو يقل استعمالها في الادب الحديث قد تساعدنا
على وضع قاعدة نفرق بها بين ما نريد أن نفرق بين بعضه وبعض من نواتج
العقل الانساني ، بحيث تؤهل بنا الى تكوين نظرة أولية تنير لنا السبيل
الذى يجب أن نسلكه في بحثنا هذا .

يقال ان العلم ذا صفات ثلاث : يقال انه تام ، ايجابى ، موضوعى . وأن
الفرق بينه وبين صور الفكر الاخرى ان هذه غير تامة ، مبهمه ، ذاتية :
Subjective . ان العلم ليؤدى للعقل نواتجه أو أفكاره في اصطلاحات
محدودة بالتعريف ، مباشرة المعنى ، بينما تجد ان هنالك علما من الادب
والنواتج العقلية غير محدود بالتعاريف ، رمزى في قوامه ، غير مباشر المعنى
والتعبير . ان العلم ليسلم بأن ليس له من دعامة الادعامة المعرفة على أن

تكون بيئة جليلة تامة الوضع . لهذا تجده معانداً في طبيعته لنواحي الفكر المرتكزة على الاراء والاعتقاد والايان . ولا يغيب عنا أن هذه المصطلحات اما أن تشير الى الاسلوب الذي ينتج في البحث ، واما أن تشير الى موضوع البحث ذاته . أما العلم فيعترف بأن له أسلوباً ثابتاً لا يحتمل الجدل ولا يسع التورط في المسائل الخلافية النظرية . وأما بقية فروع الفكر ، فاما أن تستعير أساليبها من الاسلوب العلمي ؛ واما أن تطبق أساليب متغيرة لم يجمع عليها الاجماع كله ، أو تأبى الخضوع لاسلوب ما على وجه عام .

إذا بلغنا هذا المبلغ امكننا أن نقول بأن وضع حد للتفريق بين موضوعات بحثنا أصبح مستطاعاً . فالعلم يتناول كل الاشياء أو الموضوعات التي تطرأ على أذهان السواد الأعظم من الناس أو تمس مصالحهم ، وهي موضوعات قد يبلغ الى الاحاطة بها كثير من الناس . ولهذا يفخر العلم بأن مشاهداته واستنتاجاته خاضعة دائماً للتحقيق والبحث أنا بعد أن . لذلك تجد أن شطراً عظيماً من المشاهدات والاستنتاجات العلمية قد تؤخذ في أكثر الاحيان على أنها حقائق تامة اجمع على صحتها وثباتها ، فيمضي الذين لا يأنسون من أنفسهم القدرة على تمحيصها وبحثها ؛ أو الذين تفقد بهم الهمة دون فحص براهينها ، قانعين بأنها اشياء بديهية ثابتة لا مبدل لها . غير ان هنالك اشياء كثيرة تقوم في عقل كل فرد من الافراد ، شخصية في طبيعتها ، ذاتية في مبعثها . وهذه الاشياء في انفسنا من الشأن والخطر ماغيرها من مطالب الحياة وحاجاتها . ان هذه الاشياء لتكون المادة الحقيقية التي يتركب منها الفكر الخارج عن ميدان العلم ، وهي في جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم اليقيني . وفي هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته ان يقوم بعمل ينتفع به الكثيرون ، على نفس

الطريقة التي تحتذى في العلم . فلاخذ بالبرهان في ذلك الشرط مستحيل ،
والاجماع على شىء فيه لا يضم تحت لوائه الا عدداً قليلا من الناس .
فالاقوال والنظريات لا يمكن أن تؤخذ في هذا الشرط على أنها حقائق
ضرورية لا تتحمل الجدل كما هي الحال في العلم ، بل ان كل شخص لا بد
في أن يجتاز فيها السبيل الذي اجتازه الذين تقدموه ، قبل ان يأنس من نفسه
القدرة ، او يجد لنفسه حقاً ، في قبول ما ألقى اليه أو الانتفاع بشمراته .

ان الصفة الوحيدة التي تلازم ذلك الشرط من الفكر أنه فردى ذاتى ،
في حين أن العلم ، مهما كانت صبغته ، ومهما كان أصله ، عام موضوعى .
أى غير ذاتى . يرجع الى الموضوع ، لا الى الذات التي تفكر في الموضوع
وتفحص عنه . فاذا تمثلت الفكر بشىء ذى طرفين متناظرين أفيت أن
العلم الرياضى في أحد طرفى الفكر ، وأن الدين في الطرف الآخر . وأنتك
لتجد أن الاتفاق في الطرف الاول صفة ملازمة ، كالاختلاف في الطرف
الثانى . تلاحظ ان وحدة الفكر صفة ثابتة في الطرف الاول . في حين أنك ان
تقع لها على ظل في الطرف الثانى . انها لم تعرف في الدين ولن تعرف . وأنتك
اذا أرويت ان تعبر عن ذلك بالكلام الدارج لاستطعت ان تقول ان المعرفة
والتحقيق لزام الطرف الاول وأن الايمان والاعتقاد لزام الطرف الثانى . على أنك
فيما بين الطرفين تقع على مسافة كبيرة من الخلف تفصل بينهما . ان هذه
المسافة ليغشاها من الفكر صور تصل بين الطرفين ، تبرز حيناً في هيكل
من المعرفة ، وآخر في مثال من الايمان ، فيختلط فيها قليل من الاشياء
الحققة ، بكثير من الايمان والاعتقاد المبهم . تلك المسافة الكبيرة ، وهذه
المفازة المترامية الاطراف ، والتي تتوارد عليها صور التغاير والاختلاف
سريعة متعاقبة ، هي سكن الفلاسفة الحقيقي ، ومنبتها الاصلى . الفلسفة التي

نتناول الحقائق ، ولا تأنف من الايمان . الفلسفة أصل المعرفة ، ومنبع الاعتقاد واليقين . الفلسفة حلقة الوصل الواقعة بين الطرفين ؛ طرف العلم اليقيني ، وطرف الدين .

ولو كانت كل فكراتنا قائمة على الرياضة الصرفة ، راجعة الى العدد والقياس والتقدير الحسابي ؛ أو كانت دينية صرفة ، لا تنظر الا في مصاحنا الذاتية ومعتقداتنا الخاصة ، لما كان لنا من حاجة الى وسيط يقوم بعبء التفاهم بين الطرفين ويصل بين المتناظرين ، ولما قام في عقولنا خلاف بين الاشياء المحققة ، وبين المعتقد الذاتي . غير أننا لا نلبث أن نعكف على القواعد الرياضية ، أو نعمل على ابراز معتقداتنا الى حيز العمل ، حتى تدركنا صورتا الفكر الاخرتين وتلزم الاحتكاك بمصاحنا ، فنشعر اذ ذاك بضرورة الكشف عن نظرية أو مذهب يمنع التصادم بين الاطراف المتباينة ، ويسير كل الاطراف في طريق يمتنع فيه احتكاك بعضها ببعض . على أن الظروف التي تنتج مثل هذا الاحتكاك اذ تختلف باختلاف حاجات الحياة العملية ومطالبها ، وتباين بتقدم العلم العملي ، كان تغير تلك النظريات والمذاهب ومضيتها ممعنة في التطور والتباين أمرا محتوما بحكم ذلك .

قد يقال هنا ، جريا على ماتقدم ، ان مهمة الفلسفة تنحصر في تدبر تلك الطرق المختلفة التي تطبق بها الاساليب العلمية الصرفة وينتفع بها ، أو ملاحظة تلك السبل المتباينة التي تصبح من طريقها المعتقدات الذاتية ذات أثر في المسائل العملية . وهي مسائل تشترك فيها الصبغة الذاتية الخاصة ، بالصبغة الموضوعية العامة . ولن يستتبع ذلك ان الفلسفة يجب أن تشيد مذاهب تامة . غير انه من الطبيعي ، بل من الضروري ، ان يحدث استجماع عدد كبير من النظريات ومظاهر الفكر العامة ، نزع في النفس الى التاليف بين

ما يخالف منها، والتوحيد بين ما تبدد من مجموعها، لتصبح كلاماً متماسكاً الاطراف .
بذلك تجد ان التصميم الذى لم يكن فى مبدئه سوى شئ انتقادى تهيدى
صرف ، والذى لم يكن الا مجرد وسيلة يتدرع بها الى غاية، قد ساق الفكر
فيه الى تكوين نظرة عامة شاملة فى حقيقة الاشياء ، أى الى مذهب فلسفى .
وانت فى أية من الجهات نظرت فى الموضوع ، فلا بد من أن تقودك
خطواتك الى اعتبارات ثلاثة يتشكل فيها الفكر: الاعتبار العلمى : والاعتبار
الذاتى : والاعتبار الفلسفى . فاذا أهمل باحث من الباحثين النظر فى اعتبار
من هذه الاعتبارات فى تاريخ وضعه فى تطور الفكر فى القرن التاسع عشر ،
فانه لا محالة فاقد قسطاً من قيمة عمله على قدر ما يكون اهماله .

ولا ريبه فى أن هنالك مدارس تصدت لبحث الفكر دججت العلم فى
الفلسفة . وأخرى ظلت معتقدة أن لا استقلال بين الفكر فى صورته
الدينية ، وصورته الذاتية ، وصورته الفردية ، وأن هذه الصور ليست سوى
صفات منتحلة لا صفات حقيقية . وهذه النظريات وامثالها ان حازت
قسطاً من الاثر فى العقول كبير ، الا أنها لم يكن لها من نصيب فى النهاية
الا السقوط والفناء . وهانحن نجد انفسنا فى نهاية عصر من أطول عصور
النقد واخصبها انتاجاً ، فلا نستطيع أن نحكم بان علماً من عوالم الفكر
الثلاثة قد فاز بنصر فاصل على العالمين الآخرين . فلا يزال كل من العلم والفلسفة
والدين شرع فى حكم العقل من حيث الاثر الخاص بكل منها . فالعلم
لا يزال كما كان تلك الصورة الفكرية التى تزودنا باوجه المعرفة المحققة .
والدين لا يزال منبع المعتقدات التى تنزل الى أبعد أغوار المصالح الذاتية .
ولا تزال نجد أن انفسنا اشد مما كانت شعوراً بالحاجة الى التوفيق بين
ذيتك الطرفين بوضع نظريات تحتذى فى الحياة ، وتبعد عن العلم بمقدار

بعدها عن الاقتناع الذاتي الصرف . وهذا يدل على أن الحاجة الى الفلسفة
اشد مما كانت في كل العصور الاخرى . لقد شهد القرن التاسع تطورا
عظيما وقع في الفكرة العلمية ، ونهضة خصت بها الصوالم الدينية ، وحياة
جديدة بعثها الشعور والنشاط الدينى ، وهو على الظن الغالب اغنى من كل
العصور التى تقدمته بالنظريات الفلسفية ومذاهب الفلسفة .

اشد ما كان اسقى اذ الفيت نفسى مضطراً لان اقسام الموضوع الذى عكفت
على الكتابة فيه وأن افصل بين اجزائه . لان الفكر فى مظاهره الثلاثة
ليس الا وحدة ، الاضطراب الى تفضيل بعض مظاهرها على بعض ، واختيار
نقطة نبدأ منها السير ، أمر اشعر معه بكثير من الأسف . رأيتى مضطرا
بحكم الضرورة ، لدى اول عهدي بالتأمل فى أمر الفكر خلال القرن
التاسع عشر ، أن أجزىء ما هو فى الواقع متحد الاجزاء مؤتلف النواحي .
ولحظت فوق ذلك أنى ملزم ، كلما اعنت فى بحث مظاهر الفكر ، بأن
انتخب من بينها ما هو اكبر خطرا وأمن قيمة لاجعل منه نقطة الابتداء .
على أن الحقيقة أن فكرة التفضيل بين بعض مظاهر الفكر وبعض ، لم
تقع قط فى سبيل عملي كقاعدة ثابتة . فانى اسلم وقنابان كل مظاهر الفكر تنساوى
من حيث الأثر والقيمة ، ولا ابتئس ان انا بدأت بالنظر فى مظهر من مظاهره
بغير تفضيل ولا اختيار ، تاركا الرجوع الى المظهرين الآخرين رهن الظروف
التى تحيط ببحثى . ذلك لان مظاهر الفكر ان نظرت اليها من
ناحية التاريخ والواقع ، الفيتها نسيجاً واحدا متلازمة اجزائه كل
التلازم ، بحيث يتعذر عليك أن تفصل بين خيوطه الا لتذهب بالصورة
الطبيعية للمنسوج فى مجموعه . ذلك فى حين أنه ليس من المعتذر أن تضع
نفسك فى مواضع متباينة اذ أنت مكب على التأمل من مظاهر الفكر

الثلاثة في القرن التاسع عشر ؛ لتتخذ في موضع منها مظهراً تضعه في قمة البحث ، والآخريين في القاعدة . فانك لن تستطيع أن تنكر مثلاً أن المظهر الذي التأم من حوله الفكر الالماني خلال الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، كان المظهر الفلسفي . فان ذلك العديد الوافر من المذاهب الفلسفية التي تعاقب ذبوعها في ألمانيا ، لامر باعث على أشد العجب . كذلك كان تأثير تلك المذاهب على الادب والعلم والحياة العملية مقطوع النظير في تاريخ تالانسان . والرغبة في استيعاب المعرفة التي اهابت بطلاب العلم في نواحي الدنيا الاربع ليتوافدوا الى المانيا فتكتظ بهم قاعات الدرس ليتلقوا عن كبار الفلاسفة الغيبيين ، لن تقع على ما يماثلها اللهم الا في مدارس آيننا في العصور القديمة ، وفي قاعة الفيلسوف « أبيلار » Abelard في القرون الوسطى .

فاذا بدأنا البحث بالنظر في هذه النهضة الكبيرة ، وكيف نشأت ونمت ، وكيف ضعفت وبادت ، كان لنا من ذلك مقدمة حسنة نتطرق منها الى الكلام في تاريخ الفكر في القرن التاسع عشر . واذا مضينا بعد ذلك ناظرين في حالة فرنسا الفكرية وأردنا أن نستخلص منها أشد مظاهر الفكر فيها أخذاً بألبابنا خلال القرن التاسع عشر ، وقعنا على مجموعة أسماء اولئك العلماء الاعلام الذين ينزلون في الصف الاول من بين العقول التي اقلتها الارض في كل عصورها . ففي الشطر الاول من القرن التاسع عشر القيت بزور كل فروع العلوم الحديثة في فرنسا على وجه الاجمال . وخضع كثير منها للقوانين والاساليب الرياضية البحتة . وفي فرنسا عمت موضوعات العلم تعميماً ألبسها ثوباً طلياً من الاسلوب اللغوي ، فبدأت تتغافل في الادراك العام ، وأنشأت في الادب والفن مدرسة حديثة هي مدرسة الطبيعيين .

وإذا قارنت بين الروح الرياضية الطبيعية التي نمت في فرنسا خلال القرن التاسع عشر وبين الفلسفة ، وجدت أن هذه لم تسعد بحظ من النشوء كبير . فإن النزعة التشيدية التي انتجتها الفلسفة الخيالية في فرنسا اذ ذلك لم تستمد الا من المذاهب القديمة كذهب « ديكارت » Descartes و « افلاطون » Plato و « ارسطوطاليس » Aristotle ، أو من المذاهب الاجنبية عن فرنسا كذهب « هيغل » وغيره من فلاسفة ألمانيا الغيبيين . فاذا رجعنا الى انجلترا وقارنا بينها وبين فرنسا من ناحية العلم ، وألمانيا من ناحية الفلسفة ، وجدنا أنها قد أصيبت بانعقم العلم في أوائل التاسع عشر . فإن العلم والفلسفة لم يتنعا ثمارهما في انجلترا الا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبزت في الناحيتين كل شعوب أوروبا . ولكننا نجد لها في أوائل القرن التاسع عشر قد أجذبت كل الاجذاب في تكوين مدارس كبرى سواء أفى العلم أم الفلسفة ، فوجد ان مستكشفات العلم العظمى لم تقرن بسوى اسماء مفردة ظلت في عزلة عما حولها غالباً . وتلك النظم المدرسية الكبيرة التي يحق للعلم ان يفخر بها في فرنسا ، لم يكن لها وجود في انجلترا . كذلك لم يكن لانجلترا أقل ضلع في نشر المعرفة العامة في أوروبا ابان القرن التاسع عشر ، والفلسفة الغيبية لم تنهض هنالك مطلقاً بعد تلك الضربة التي سددها اليها « دافيد هيوم » ، واقتصر التأمل الفلسفي على عالمي الاجتماع والاقتصاد المبسكين في ذلك العهد . غير انك تلقاء ذلك تقع في انجلترا على فكريات أخذت تتكون وتنمو في الأدب الشعري . فان ما كان من قوة الابتكار الذاتي موشاة بلغة « شيلي » Shelley - « ووارد سوورث » الشعرية ، وما أبرز نبوغ « تينسون » Tennyson - « وبروننج » Browning - من المعاني الناضجة العميقة ، هي الاشياء التي تقع في طريقنا كأخص ما فاض به الفكر الانجليزي خلال القرن

التاسع عشر ، سواء احصرنا وجهه المقارنة بين انجلترا وبين بقية شعوب القارة ، أم بينها في عصرنا ، مقاسة بالعصور التي أئسع فيها الفكر الانجليزى من قبل ذلك .

ولقد نرجع فى النهاية الى ما انتج أ كبر عقل جاد به الشطر الاول من القرن التاسع عشر لنستمد منه نقطة ابتداء نرتكز عليها . قد نرجع الى كتاب « فوست » Faust الذى أخرجه نابغة النوابع « جوته » قد نرجع اليه لنتخذة مثالا لاعمق ما جاد به القرن التاسع عشر من صور الفكر ، بما فيها من الشكوك والآمال ، اذ ينتقل بك كاتبه من تيه الفلسفة الموحش ، الى ميدان العلم الطبعى الفائض بالنور ، المحفوف بالايئاس والطمانينة ، أو يأخذ بيدك الى أقصى اغوار الحياة الفردية المستورة وراء ظواهر هذا العالم ، ليقتد بك الى مطمأن المعتقد الدينى والايئان وما فيه من الاسرار الخفية المحيطة بطبيعة الخطيئآت ، والرجوع عنها الى التوبة والاستغفار .

على اننا من أية من تلك النقط نبدأ سفرنا الطويل ، وعلى أية من بورات الازتكاز ، تقع أبصارنا لدى أول نظرة نلقيها على ما بين يدينا من ذلك الميدان النفسى الذى نريد ان نستكشف نواحيه ، نجد أن هناك مظهرًا واحداً يتحيز فى عقولنا منذ البدء . سرعان ما يلقى فى روعك ان ذلك الميدان الفسيح ليس بالجنة التى تطمع فيها بالسكينة والهدوء ، وليس هو بالمكان الذى تؤمل أن تزود فيه بميئآت العمل الهادئ الذى تبزر بزره وتجمع حصادة بدءة ولين ، وليس هو منبث للتعاون واقتسام العمل الذى تظفر فيه بالسلم البعيد عن خشونة الصراع والجلاد . انه لميدان أشبه ما يكون بارض تنازعتها القوات العنصرية بالتخريب ، واثابها الزلازل العتية بعواصف التدمير ، وركبتها شوها ، لا تفرق بين صعيدها والاخذود . وانك لتعثر فيه فوق

ذلك على بضعة اناس اخذوا على عوانتهم أن يسدوا منه فجوات احداثها
الماضى وقائض خلفها السلف ، وآخرين آخذين فى تشييد أسس جديدة
على قواعد جديدة . وتقع على غير أولاء وهؤلاء فتجدهم متنايدين متصارعين
على حيازة الملك أو اقتسام التراث ، حتى أولئك العمال الوادعون فى مصانعهم
لن تتركهم طبيعة المجتمع الخاف بهم آمنين ، بل تدعوهم الظروف الى
الاشتراك فى تلك المعارك ، أو تهزم شكوى الذين يجاورونهم من مظلّم أهل
السطوة والجاه ، فيهبون من مراقدهم عطشى صراع ، ويرتدون كلهم هزيمة
وانكسار .

أما اذا أردنا أن نتدبر السبب فى ذلك القلق السائد فى المجتمع ، والذي
ظل بين الاثر فى الحياة طوال القرن التاسع عشر ، فالواجب يدعونا الى
أن نرجع النظر كرة الى العصر الذى تقدمه ، لنجد أن عاصف تلك
الثورة الهوجاء الذى عصف على أوروبا فبدل كل النظم السياسية والاجتماعية ،
هو الذى ترك ذلك الاثر الظاهر فى آرائنا وافكارنا ، من أية ناحية نظرت
فيها ، وعلى أى الوجوه قبلتها . ان ذلك العصر الذى نشير اليه قد دعى
بحق عصر الثورة . أما اذا لم اعتبر أن الفكرة فى القرن التاسع عشر مع
كل هذا فكرة ثورة وانقلاب ، فذلك لأن التقويض والهدم تابعان لعصر
فرط وانقضى ، وأن فجر القرن التاسع عشر قد توج بالرغبة فى النبأ ، اما
بتشييد الاسس الحديثة ، واما بالرجوع الى صور الفكر القديمة ، ومظاهر
الحياة التى خلفتها القرون الاولى ، انزكى يبراهين ودلائل مستحدثه ، أو
لتبرز فى ثوب يسدل على معنى جديد أو منفعة محققة .

كان الفكر فى القرن التاسع عشر من الناحية العلمية اساسى طبعى من
جهة ، ورجعى من جهة أخرى . ولست أقصد بانه اساسى طبعى ، الا لما كان

فيه من نزعة البناء والتشييد التي تغلغلت الى صميم الاشياء لتتخذ مما تعثر عليه من المواد وسيلة لاقامة هيكل العلم على أرض بكر . كما انى لا أقصد بأنه كان رجعيا الا لما انست فيه من شتى المحاولات الميئسة التي اعتمدت على النظم التاريخية والعقائد ، ومضت في تلك السبيل عاملة للعشور على ما فيها من حقيقة ، وما لها من قيمة في الحياة الانسانية ، وما يتضمنان من خطر وشأن في علاقتها بالقرن التاسع عشر .

ان عوامل الهدم والتقويض لا تزال قائمة بفؤوسها ومعاولها . فاننا لا نزال نرى الروح الثورية قائمة فتية في عصر التأسيس والبناء . فأن الحياة الجديدة المملوءة بكل بواعث القوة التي بها « برنز » Burns و « واردسوورث » و « كوليردج » في الشعر الانجليزي ابان القرن التاسع عشر ، قد عاقتها الروح الثورية التي خصت بها مدرسة « بيرون » The School of Byron عن الانبعاث في سبيل النشوء ، بل سممتها . كذلك تجد أن الفكرة الحديثة التي شبت وترعرعت في فلسفة « كانت » والمدرسة المثالية Idealistic قد انحطت خلال تعاقب الصور التي توالى عليها الى « مادية » جوفاء ، ولا أدرية « لا تترقب وراءها من أمل ولا رجاء .

انك لن تجد عاملا من تلك العوامل المهدمة المقوضة ، على ما بعثت في الانفس خلال تعاقبها من لذة وفتنة ، قد انبتت متجهاً حديثاً اتجه فيه الفكر . وكل من أراد أن يدرس أوجه التدليل التي تهدمت بها النظم الاجتماعية ؛ أو نقضت بها المعتقدات التي طالما اعزها الناس ، فلا بد من أن يرجع الى ما كتب مؤلفو القرن الثامن عشر ، الذين صبوا براهينهم وأدلتهم في قالب من القوة والسلالة ، ظل المنهل الفائض الذي اعتل منه فوضيو القرن التاسع عشر زماناً طويلاً . ولقد نسج على منوالهم من

كثت زماننا فئة خصت باوسع شهرة وأعظم منزلة .
كذلك ليس من قصدي أن أصف تلك الطرق التي تذرعت بها
الحكومات والسياسيون ابتغاء صد الامم عن مطالبيها الشرعية . تلك
الطرق التي انتهت في أمريكا باعلان الاستقلال ، وفي فرنسا بصيحة الثورة
الكبرى . فانه لم يتحقق من مجموع الامثال العليا التي ابرزتها تلك الحركة
الكبيرة الا جزءاً ضئيلاً في إنجلترا . ولقد صد الانصراف الى تحقيق الوحدة
القومية ، أو الصرع ابتغاء الاستقلال السياسي كثيراً من أمم أوروبا عن
الانبعاث في سبيل الاصلاح الداخلي . ولم يتفق النظريون على أى من
النظامات الاجتماعية تستطيع الحرية والمساواة أن تقوم لتعيش في جو واحد .
على أن تعاليمهم لا بد من أن تسترعى شطراً من انتباهنا وعنايتنا باعتبارها
صورة من صور الفلسفة العديدة التي انتجها الفكر في القرن التاسع عشر .
غير أن هنالك فجوة سحيقة تفصل بين النظريات الاجتماعية والسياسية
العملية ، سدت فراغها الحروب والمداهنات السياسية ، أو قنعت بأن يملأ
خلأها الكائن بين النظر والعمل ضروب من التوفيق مضت عاملة على
التأليف بين النظامات التي خلفتها القرون الاولى وبين مهارات العصر
الحاضر من جهة ، وبين هذه وبين صيحة الامم المطالبة بحقوقها المشروع في
الحرية من جهة أخرى .

وعلى الرغم من أن جزء كبيراً من الفكر العملي مصحوباً بكثير
من الجهد قد انفق في سبيل الوصول الى تلك النتائج ، فاني أعتقد أنها
خارجة عن موضوعي الذي رسمته لنفسى . فحيثما خرجت الفلسفة أو العلم
عن ذلك الجو الهاديء ، جو الدرس الجدى ، أو تخطيا جدران قاعات
المحاضرة ومعامل البحث ، الى خلافت العوام وجدلهم ، وحيثما خرج الدين

عن اغوار النفس المعتقدة المؤمنة المخلدة لاسرار الغيب ، ليكون وسيلة لحل معضلات الحياة البشرية ، أو أدلة لآداء لواجبات اليومية، فهنا لك أمسك عن النظر فيها لانها بذلك تكون قد خرجت عن الحدود التي ألزمت نفسى السكون اليها ، والوقوف عند حدودها . وليس من معنى هذا أنى لأسلم بوجود ذلك الحيز الذى تخضع فيه الروح المادة وتتغلب عليها ، والذى يكون الفكر فيه ذائفع مادي ، والذى قد تنقلب فيه الأفكار الى حقائق ثابتة : حيز الجلال والجهاد : حيز الصبر على العمل والانتصار التدريجى الذى تم أسبابه حالا بعد حال فى هدوء وتسلسل ، فانه لحيز أعتقد أنه من أخطر ما يتناوله التاريخ بالاثبات، وانه الحيز الذى أثبت فيه القرن التاسع عشر مالم يسعد به عصر من العصور الماضية . لست أقصد شيئاً من هذا . بل أقصد أن النظر فى هذا الحيز من حياة القرن التاسع عشر لا يأتى تاماً مع قصرنا البحث على ثلاثة الامم الرئيسية التى أخذت من عالم الفكر بضامع وافر .



ان ذلك العالم الداخلى ليس بعالم الوداعة والسلام والنشوء المهادى . فانك لن تقع على عصر أخصبت فيه العقول فى انتاج كثير من النظريات المتناقضة ، أو كان أكثر تحطياً للآراء والفكرات العميقة ، أو أشد تقويضاً للمبادئ التى ظلت قائمة ثابتة دهوراً طويلة ، من القرن التاسع عشر . على أنى سأظل أميناً على المبدأ الذى اعتنقته ، مبدأ ان انظر فى الفكر من ناحية أنه قوة تشييدية ، لا كعامل تقويضى . أريد ان انظر فى علم الفكرات كخطر مما كسب العقل من قوة اليقين ، وليس كظل متحول من ظلال اد الوجود المادى . وانى لأعتقد اعتقاداً حقاً بأن العقل الانسانى مهما استعان

بالمنبهات الخارجة عن حيزه لينمو وينشأ ، ومهما عجز عن التقدم بغير ان يستمد من مصححات القوى الخارجية ، فانه في حياته الفردية والاجتماعية يتضمن نوعاً مستقلاً عن كل الوجود الخارجى يفيض دائماً بالحقائق ذات الآصرة بالاشياء المحسوسة ، وبالفكرات على اختلاف ضروبها وتباين الوانها .

اذلك سوف اعمل وأجاهد لى أجعل روايتى فى الفكر خلال القرن التاسع عشر دائرة حول النظر فى الفكرات التشيدية التى أبرزها العقل خلاله ، غير غافل عن الكلام فى الاساليب التى احتذاها البحث ، ولا صور الفكر التى أدت اليها . ولست أقصد بالفكرات التشيدية الا أمثال الفكرة فى « نشاط » المادة او « بقاء القوة » وتوزعها ، وقانون المتوسطات والاحصاء والتغليب ، وفكرات « دروين » Darwin و « سبنسر » فى الشؤء علمياً وفلسفياً . ومذاهب « الفردية » « والذاتية » ونظرة « لودز » الخاصة فى عالم « القيم » . على ان حول هذه الاشياء تتركب صور النقد التى تحاول تقضها ، والمسائل الخلافية التى تنبثها عقول المغالين فى المحافظة على القديم . غير أننى سوف لا أتناول بالبحث من مجمل ما نبذت به أقلام المحافظين الثابتين على مغالاتهم فى التمسك بالآراء العتيقة الا ما كشف لنا منها عن اصول الخطأ المتغلغة فى تضاعيف الفكرات الحديثة ، أو ما نزل منها الى أبعد أغوار المبادئ والفكرات المبتكرة ليزيدها ثباتاً وحققاً ، أو ما يكشف منها عن أساليب جديدة تساعدنا على تحقيق القواعد التى نعكف عليها . ان هذه هى الروح التى نبها الفيلسوف « كانت » فى الفكر الحديث . أما ما يناقض تلك الروح من نزعات المتطرفين المغالين الذين يهدمون ولا يشيدون ، الذين عدت بهم الهمة عن بلوغ مرتكز ثابت يرتكزون عليه ، على اعتقاد أن

الفكر الانساني وقوة المشاهدة المنبهة في العقل ليست سوى خيالا ووهما ،
 فالولئك سوف أمر عليهم مرا لا عبرهم فيه شأننا ولا انتباها. ذلك خير ما نفعل
 ازاء فلسفة جوفاء عدمت كل معنى من معاني الحياة . ولا يفضلهم في نظرى
 اولئك المحافظون على القديم الذين ينتقصون كل تقدم محولين اخفاء ضوء
 النهار وراء الظلمة التى تنبعث من أقلامهم ، ويدشرون بمذهب «الاستمرار»
 فى الفلسفة ، ذلك المذاهب الذى ينكر كل تقدم صحيح فى العالم الانسانى .
 غير ان هـذا كله لن يعوقى عن الاعتراف بما كان لبعض الحركات
 الرجعية من نفع وفائدة . فان « الفلسفة التخيلية » Romanticism — بما
 كان فيها من حب الماضى ، وما أبرزته مثالياتها من تلك الصورة الفنية
 المحيكة التى صورت بها الانسانية فى طفولتها وغراتها ، ومظاهر الحياة فى
 فطرتها الاولى ، واكباها على دراسة حالات القرون الوسطى ، وما كونت
 من كمفآت القياس التاريخى ، كل هذه الاشياء كانت لها فوائد لها ، رغم
 طبيعتها الرجعية . سوف أبذل جهدى لى احيى دائما على من يسألنى :
 شئ شئ اضاف القرن التاسع عشر الى مجموعة ما انتج العقل من فكرات ؟
 وأى كسب نالنا من ذلك الجهد العظيم ؟ مقنعاً بأن كل شئ فيه صفة
 الحياة لا بد من أن ينمو ويزيد ويتضاعف . وأى شئ فيه من صفات الحياة
 الحقيقية ما فى الفكر ؟

علي أن مدرسة « النقد الفكرى » التى وضع أساسها الفيلسوف
 « كانت » ، والمدرسة « التخيلية » التى تركزت حول عقل « وواترسكوت »
 Walter Scott والتخيليون الالمان ، ان كانتا اخص ما انتج الفكر فى
 القرن التاسع عشر ، فاقى لاعتقد أنهما لاتصلحان أن تتخذا قاعدة أولية
 يتبدى منها باحث يريد أن يؤرخ فى عالم الفكر خلال القرن التاسع

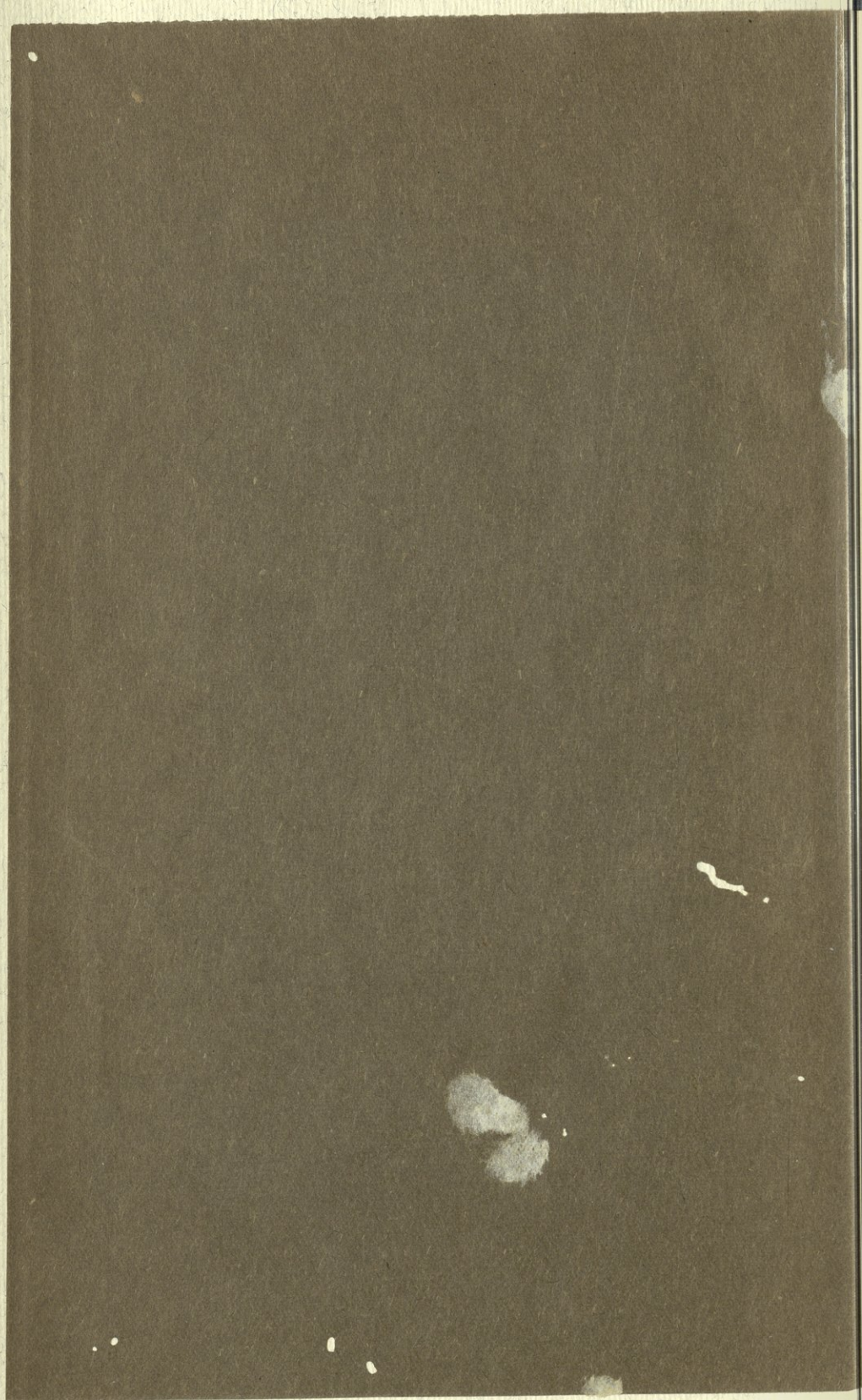
عشر . أن أخص ما يجب أن ينصرف إليه كل من تصدى للبحث في ذلك العهد ، أن يسوق بحثه متخذاً من مذهب « هيغل » في « نشوء الفسك بالقدرة الذاتية » مرصداً يرصد منه الفكر ليخلص من بحثه بنتيجة : « بحق لدى المفكرين مقدار ما في هذا المذهب من حق ، وما ينطوى عليه من صواب .

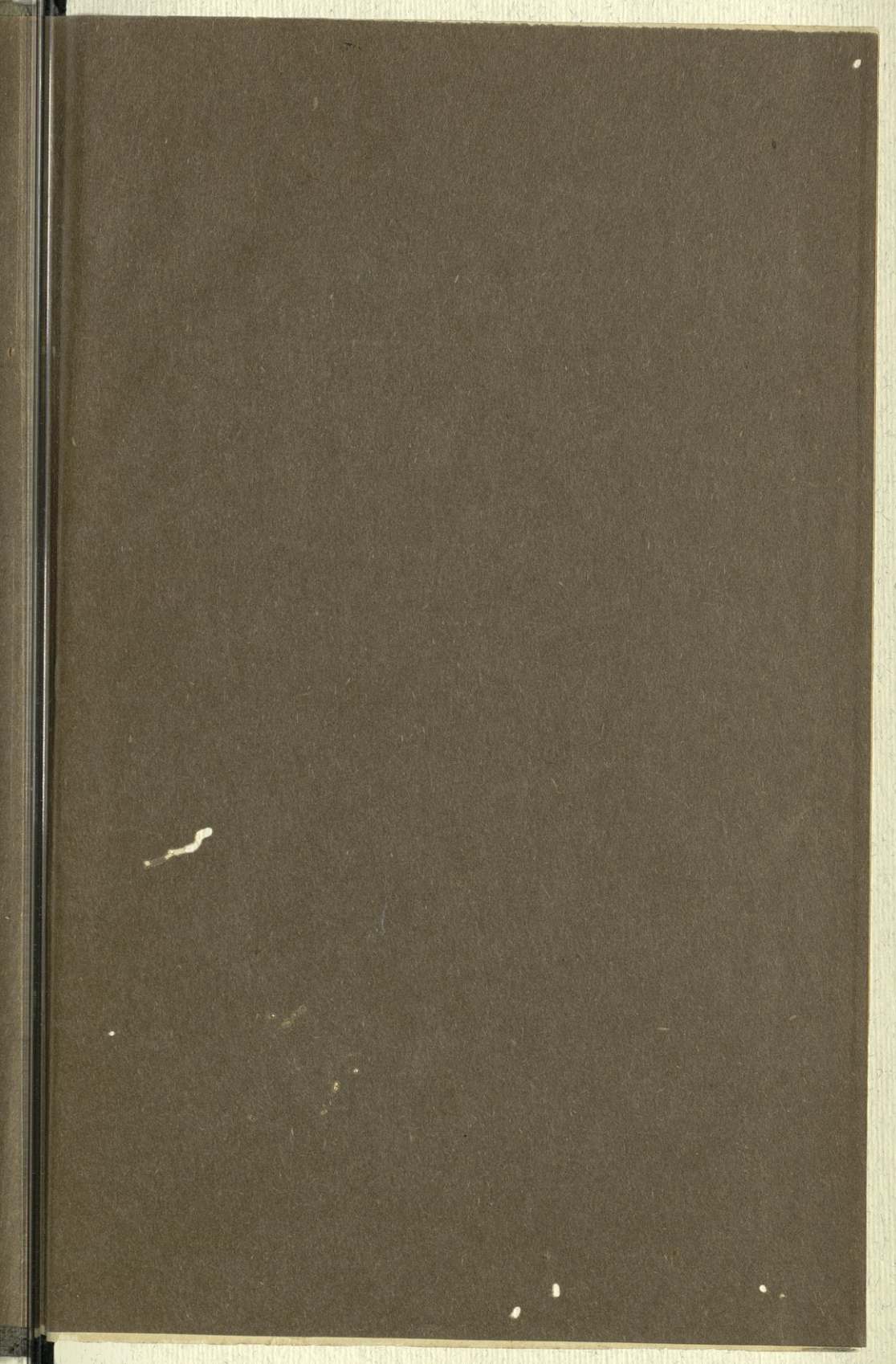


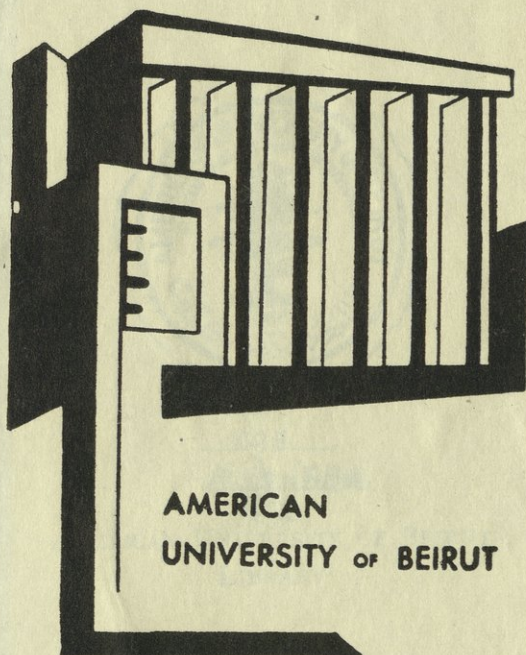
بيان — وقعت اغلاط مطبعية سهواً في بعض ملازم الكتاب ، وليست من الاغلاط المغيرة للمعاني المقصودة ، بل هي مما يفتن إليه القارئ بسهولة : لذلك حق علينا أن ننبه على ذلك والعصمة لله .

القاهرة في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٣









AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

